تبصرات

المَحَبَّة (٢)

سِمَةُ المَلَكوتِ ولُغَتُهُ الرَسمِيَّة

أوسم وصفي

تأملات في الأصحاح الرابع من رسالة
يوحنا الرسول الأولى

الكاتدرائية المرقسية بالإسكندرية
مكتبة مارمرقس الاستعارية

المحبة ٢

تأملات في الأصحاح الرابع من رسالة يوحنا الرسول الأولى

مسلسل ١٧٩١٨
التصنيف مواضيع روحية ورقمه ٢٤٨
استعارة داخلية استعارة خارجية

أوسم وصفي

القاهرة ٢٠١٤

المحبة ٢

د. أوسم وصفي

الطبعة الأولي ٢٠١٤

رقم الإيداع: ٢٢٣٧٣/٢٠١٤

التنفيذ الفني والطباعة

شركة سباركل لحلول الطباعة

ت: ٢٤٥١١٧٦١

www.sparkleegypt.net

إهداء

إلى أهل مصر

فهرس المحتويات

مقدمة:	٥
الجزءالأول: الله مَحَبَّة وكذا المولود مِنهُ	٩
الفصل الأول: المحبة تأتي من الله	٢٥
الفصل الثاني: كُل من يُحبّ	٣٧
الجزء الثاني: الثبات في المَحَبَّة	٥٣
الفصل الثالث: أن نؤمن	٥٩
الفصل الرابع: أن نُحِبّ الإخوة	٧٧
الجزء الثالث: دَوَاء الخوف والحِزي	٩٧
الفصل الخامس: لا تَخافي	١٠٣
الفصل السادس: لأنَّك لا تَخزين	١١٩
ختام	١٢٩

تَبَصُّرات

هو عُنوان هذه السلسلة من الكُتُب الصغيرة. وكَلِمة «تَبَصُّرات» هي جَمع كلمة «تَبَصُّر». والتَبَصُّر Insight يعني الرؤية العميقة المُتأمِّلة المَقصودة في مُقابل الرؤية السَطحيَّة العَفويَّة غير المقصودة. مثل هذه الرؤية تَتَطلَّب بذل الجَهد. في هذه السلسلة سوف أحاول تقديم موضوعات متعددة كلها تدور حول محاولات الرؤية الأعمق لحقائق الحياة والوجود الروحي والإنساني ـــ ملكوت الله وأعماق الإنسان. والهدف دائمًا هو أن ننمو في الحِكمة والنعمة عند الله والناس. أي ننمو روحيًا ونفسيًا، فكريًا وعلاقاتيًا، مع كل ما يُصاحِب ذلك من متعة روحية وعقلية.

مقدمة

هذا هو الكتاب الثاني تحت عنوان «المحبة». الكتاب الأول (المحبة - ١) يتناول الأصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، وهو أصحاح المحبة الشهير. كان الهدف من الكتاب الأول تناوُل المحبة من منظورٍ عمليّ وهو «الخروج من النفس للآخر» حيث إن المحبة وإن كانت طبيعة إلهية خالصة تنتقل إلينا بعمل إلهي مُعجزي، فإن استقبالها لا يكون استقبالاً سلبياً مثل كوب ينسكب فيه الماء؛ وإنما يكون الاستقبال الروحيّ للمحبة استقبالاً إرادياً فاعلاً، وذلك بأن نُدَرِّب أنفسنا بشكلٍ مستمر أن نخرج من أنفسنا للآخرين. هذا الخروج يُتيح لنا أن نَرَاهُم ونشعر بهم ونرى الدنيا من منظورهم، فنستطيع أن نقبَلَهُم ونُحِبَّهم مهما كُنّا نتفق أو لا نتفق معهم. هذه هي المحبة غير المشروطة (آجابى) التي يدور حولها كل العهد الجديد.

أما هذا الكتاب (المحبة – ٢) فهو يتناول الأصحاح الرابع من رسالة يوحنا الرسول الأولى. وهو، إن جاز التعبير، أصحاح المحبة الشهير الثاني. رُبما يكون هذا الأصحاح أقل شهرة من كورنثوس الأولىالأصحاح الثالث عشر لكنه بالتأكيد ليس أقل قوة أو أهمية. رُبما لذلك كان ينبغي أن يكون هو محور الكتاب الأول، لكن رُبما دفعتني شهرة الأصحاح الأول أن أبدأ به. على أية حال فإنه إن كان التركيز في كورنثوس الأولى على التجليّات العملية للمحبة في العلاقات الإنسانية، فالتركيز الأساسي في رسالة يوحنا كان على المحبة كطبيعةٍ إلهيةٍ يقبلها الإنسان بالإيمان

ويثبت فيها بالطاعة. سوف يدور الجزء الأول من هذا الكتاب حول المحبة كطبيعة إلهية يستقبلها كل من يولَد من الله بالإيمان. لكن لا ينسى الرسول يوحنا أيضاً، شأنه شأن كُل كتاب العهد الجديد، الدور الإنسانيّ، وذلك عندما يتكلم عن الثبات في المحبة. في الجزء الثاني من الكتاب سوف نتناول هذا الثبات: أهميَّتُه، وكيفية ممارسته عَمَلِيًّاً. أما الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب فسوف نغوص فيه مع يوحنا الرسول في علاقة المحبة بالخوف. فإن كانت المحبة والخوف لا يجتمعان كما يقول الرسول يوحنا (وهذا نص الترجمة العربية المُبسطة)، فالمحبة إذاً هي دواء الخوف. وإذا كان الخوف (وقرينه الخزي) هما معاً المادّة الخام لكل ما في حياتنا من مرضٍ وخطية، فالمحبة هي بطبيعة الحال دواء البشرية الحقيقي.

«لا شيء تفعله يجعل الله يُحِبُّك أكثر. ولا شيء تفعله يجعل الله يُحِبُّكَ أقلّ»

فيليب يانسي

«أحبائي الأعزّاء

ليُحِبُ بعضُنا بعضاً

لأن المحبةَ تأتي من الله. وكُل من يُحِب،

يكون ابناً لله ويعرفه»

(١ يو ٤ : ٧)

«أنا الكرمة، وأنتم الأغصان فمن يثبت فيَّ وأنا فيه، يُنتِجُ ثمراً كثيراً.»

(يو ١٥ : ٥)

الترجمة العربية المُبَسَّطة

الجزء الأول

الله مَحَبّة وكذا المولود منه

أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ.

وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ.

بِهذَا أُظْهِرَتْ مَحَبَّةُ اللهِ فِينَا: أَنَّ اللهَ قَدْ أَرْسَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ إِلَى الْعَالَمِ لِكَيْ نَحْيَا بِهِ.

فِي هذَا هِيَ الْمَحَبَّةُ: لَيْسَ أَنَّنَا نَحْنُ أَحْبَبْنَا اللهَ، بَلْ أَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا، وَأَرْسَلَ ابْنَهُ كَفَّارَةً لِخَطَايَانَا.[1]

يالها من عِبارة! «الله مَحَبَّة». كيف تجرأ يوحنا الرسول أن يُقَدِّمَ تعريفاً لله؟ ألم يخش أن يعكس البعض العبارة فيقول مثلاً: إن كان الله محبة، فالمحبة هي الله؟» وبالتالي لا يكون الله شخصاً وإنما شعور أو موقف. يالها من جَرأة تلك التي تمتَّع بها يوحنا الرسول وهو يكتب عن الله وعن يسوع المسيح! فتارةً يقول «الله نور»،[2] وتارة يقول «الله مَحَبَّة»، وليس ذلك فقط بل يشير في مقدمه إنجيله إلى المسيح باعتباره «اللوجوس» مستخدماً نظرية فلسفية نادى بها فلاسفة يونانيون قدماء.[3] لم

١ يوحنا الأولى ٤: ٧-١٠ (ترجمة فان دايك/بستاني)

٢ يوحنا الأولى ١: ٥

٣ استخدم الفلاسفة اليونانيون القدماء هذا التعبير للإشارة إلى الخطاب Discourse واستخدمها أرسطو

تَكُن تلك التصريحات التي صَرّح بها يوحنا ناتجة من تَفَلسُف وتنظير بقدر ما كانت نابعة من الاختبار. من ذا الذي له عينان ولا يرى تَجَلِيّات المحبة الإلهية في كُل ما حولنا؟! إن عالَمَنا مُشَبَّعٌ بالنعمة والحضور الخَفيّ لله المُحب. ذلك الحضور الذي لا يُدرَك فقط بالروح بل تفضحه أيضاً المادّة والجسد. يَفضحُهُ غزالٌ يقفز فوق المروج الخضراء ليتناول منها إفطاره المجانيّ، والنسر المُحَلِّق فارداً جناحيه مستنداً على أعمدة الهواء الساخن الصاعدة من الأرض التي استقبلت أشعّة الشمس خلال نهار صيفيّ حار. إننا نرى محبة وعنايَتَهُ في النار الحارقة وفي الماء المُنعِش معاً، في قوس قزح جميل بعد عاصفة صيفية غير مُتَوَقَّعة، وفي أنثى أرنب تجري بين شجيرات الغابة، في سيمفونية بيتهوفن التاسعة، وطفل يلعق الحلوى المُثَلّجة مُغمضاً عينيه في ألمٍ ممزوجٍ باللذة، في امرأة شابّة جميلة طَيَّرت الرِيحُ شعرها، وفي عجوز تستند على ذراع زوجها المُسِنّ ليتمشيا معاً عند الغروب. لقد قَصَدَ الله لنا أن نستكشف حضوره المُحِبّ في هذا العالم، لكننا كثيراً ما لاننتبه، إما لأننا منحصرون في أنفسنا في آلامنا ومخاوفنا وحُزننا، أو في مشاريعنا وأحلامنا الشخصية الضيّقة،[4] أو رُبمالأننا نستجيب لتجربة النظر إلى بُقعة الألم الصغيرة في ثوب المحبة الفضفاض الذي يبسطه الله على كوننا.تماماً مثلما أُغوِيَ آدم وحواء أن ينظرا لشجرةٍ واحدةٍ ممنوعةٍ وسط آلاف الأشجار المسموح الأكل منها بكل ثمارها الشهية.

للإشارة إلى الخطاب العاقل المنطقي Reasoned Discourse. أما الرواقيون فعرَّفوا "اللوجوس" بأنها النظام الإلهي الذي يتخلل الكون ويديره. الفيلسوف اليهودي السكندري فيلو والذي عاش بين سنة ٢٠ قبل الميلاد وسنة ٥٠ ميلادية قام بتبني هذا المفهوم في الفكر اللاهوتي اليهودي. ثم قام يوحنا البشير (وهو من تلاميذ المسيح) بتعريف اللوجوس بأنه العقل الإلهي الذي من خلاله صُنِع كل ما هو موجود واعتبر أن يسوع المسيح هو اللوجوس مُتَجَسِّداً.

4 Brennan Manning, *The Ragamuffin Gospel* (Colorado Springs: Multnomah Books, 2005), p. 91.

الألم حقيقة واقعة في هذا العالم، لكن أيام الاستقرار والطمأنينة أكثر كثيراً من أيام الألم. المَرض حقيقة مؤلمة، لكن أعداد الأصحّاء أضعاف أعداد المرضى أضعافاً كثيرة. الأعاصير تَهُبُّ والبراكين تثور، لكن الأيام التي لا تهب فيها الأعاصير ولا تثور البراكين ولا تهطل السيول أكثر كثيراً. هناك قطارات تخرج عن القضبان وطائرات تسقط وسيارات تنقلب بركابها، لكنها أقل كثيراً من السيارات التي تصل والقطارات التي لا تخرج عن القضبان والطائرات التي تهبط بسلام على أراضي المطارات. إننا، كما يكتب برنان مانينج، نستطيع أن نُغرِق هذا القدر الكبير من الألم والشرّ الذي في العالم في ذلك البحر الذي لا حدود له من حكمة الله غير المحدودة وحُبِّه اللامتناه.[5]

هذا عن أخطاء الطبيعة والضعف الإنساني غير المقصود، أما عن خطايا الإنسان المقصودة الناتجة من جهله وأنانيته، فالنسبة أكثر بكثير. الزيجات الفاشلة لعلها أكثر من الزيجات الناجحة و نسبة انتهاك النساء والأطفال تصل إلى أكثر من نصف المجتمع في أماكن كثيرة من العالم. الكذب يكاد يكون أكثر من الصِدق والأمناء نادرون. أما من يُحِبّون ويُسامِحون ويُعطون ويضحون فهؤلاء عِندما نجدهم، نكاد نريد أن نخلع أحذيتنا لأننا عندئذ نكون واقفين على أرضٍ مُقَدَّسة.

هذا الكون الذي نعيش فيه، مهما كان فيه من صِعاب وآلام وخطية، إلا أنه لا يزال بيت أبينا.في كتابه الكلاسيكي *الخطة الإلهية*، يكتب دالاس ويللارد: «سُحُبٌ مهولةٌ من الغاز تعلو لتريليونات من الأميال، مُضاءةٌ خلفيَّتُها بانفجاراتٍ نوويةٍ تُحدِثُها ولادةُ النجوم الجديدة. المَجَرّاتُ تتدافع نحو الارتطام ببعضها البعض

5 Brennan Manning, *Ruthless Trust: The Ragamuffin's Path to God* (San Francisco: Harper Collins E. Books, 2010), p. 71(Location 842).

مُنشِأةً موجاتٍ تصادميةً تغلي وتَتَقَلَّبُ عبر ملايين السنوات الضوئية في الزمان والمكان. كل هذه أمامه، ومعها ما لا يُحصى من براعم الزهور التي تتفتح، والنفوس التي تُصَلّي، والأغاني التي تُغَنَّى، وغيرها الكثير جداً الذي لا نعلم عنه شيئاً».[6]

كان يسوع يرى أن هذا الكون الهائل هو مكانٌ آمنٌ لحياة للبشر، حتى وإن كان أحياناً ما يقسو عليهم، وأحياناً ما لا يفهمونه. كان يسوع يُعلِّم تلاميذه ألا يخافوا وألا يهتموا، فشعور رؤوسهم مُحصاة وأبوهم السماوي يعلم احتياجهم للطعام والشرب واللباس فلا ينبغي أن يقلقوا. كان يريد أن يعلّمهم أن الطمأنينة تأتي من الثقة في محبة الله وليس من سيطرة البشر على الكون. إننا نريد الأكل من «كُلّ» الشجر، والسيطرة «التامّة» على الكون والبَشر، وقراءة طالع الخير والشر في كل صفحات المستقبل الآتي، لذلك فإننا نخاف من هذا الكون الذي لا نستطيع السيطرة عليه وفهم كل ما يجري فيه. وكُلَّما زادت رغبتنا في السيطرة، كلما زادت مخاوفنا. يكتب ج. ك. شسترتون إن الإنسان عندما يحاول أن يقبل كل شيء فهذا تدريب لعضلاته النفسية، أما أن يحاول أن يفهم كل شيء، فهذا يُمزِّق العضلات.[7] هذا الخوف يرهِقنا نفسياً وأكثر من ذلك فإنه يحرمنا من أن نقرأ رسالة الحُب التي يكتبها الله في كل مكانٍ من هذا العالم. مَن الذي يُطعِم الديدان في باطن الأرض، وفي نفس الوقت يجعل منها طعاماً للطيور؟ من الذي يُدفئ الأيائل في ليل الغابة القارص، ثم يجعلها طعاماً لصغار النمور والأسود الوليدة؟ من الذي يُشعل حرائق الغابات لكي تموت الأشجار القديمة التي قد غطت سماء الغابة، ليسمح بنور الشمس أن يصل للبراعم الصغيرة النابتة في الأرض؟[8] من الذي يجعل من

6 Dallas Willard, *The Divine Conspiracy, Rediscovering Our Hidden Life in God*, (San Francisco: Harper Collins, 1997) p. 63.

7 G. K. Chesterton, *Orthodoxy* (Chicago: Moody Publishers, 2009), 31.

٨ مزمور ٢٩: ٩

السلاحف الصغيرة الخارجة من البيض الذي وضعته أُمّهاتها على شاطئ البحر، طعاماً لطيور النورس ويدع أقواها يصل للماء ويحيا؟ ماهي الزاوية التي سوف تنظر منها للوحة الوجود الهائلة؟ كيف ستختار أن تستمع إلى سيمفونية الحياة؟ حتى الأصوات العالية التي تُزعِجُكَ، كالحيوانات التي تموت فريسة، والأشجار التي تحترق. الأعاصير والبراكين والزلازل، هي كُلّها أجزاءٌ من تلك السيمفونية الهائلة التي تنتصر فيها الحياة على الموت في النهاية، والجمال على القُبح، واللّذة على الألم. من الذي يضبط المسافة بين أرضنا والشمس بحيث لا نحترق ولا نتجمد؟ فتعطينا الشمس نوراً وحرارة ويحوِّل ضوءها خَضَارَ الشجر إلى طعام لنا، وفي الليل تُرسل لنا ضوءها غير المباشر عبر مصباح «سَهّاري» لطيف اسمه القمر؟ من الذي يجعل الأرض تدور بهذه السرعة الهائلة ولكن بانتظام دقيق حتى أننا لا نشعر مطلقاً بها وهي تدور؟ إذ ندور معها بنفس المُعدل الثابت غير المُتَغَيّر منذ ملايين السنين.من الذي يجعل الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس في نفس الوقت، لتعطينا الليل والنهار والفصول، وتُقدِّم لنا إيقاعًا حيويًا مُنضَبِطًا يتناغم من إيقاع أجسادنا؟ من الذي يضبط الميزان بين جاذبية الشمس للأرض وقوّة الطرد المركزي لدورانها فتظل في مدارها لملايين السنين فلا تجذبها الشمس ولا يَطردها دورانها بعيداً فتتوه في الكون الفسيح؟

إن الرسالة المحورية لتعليم المسيح عن ملكوت الله هي أن الأمان في عالم الله لا يكون بالسيطرة وإنما بالثقة والمحبة. إنه يقول للإنسان: «لن تستطيع أن تسيطر، فثق واستسلم آمناً أن من يسيطر بالفعل على هذا الكون هو أبوك.» تفضح الطبيعة لمن له عينان للنظر، حقيقة محبة الله الممنوحةَ بغنىً لنا نحن البشر. وما يضايقنا في الطبيعة والحياة ليس مصدره أن الخليقة شريرة، لكن مصدره أنها غير كاملة.

إنها لا تزال تئن وتتمخض منتظرة الافتداء النهائي حين سوف تُعتَق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله.[٩] يكتب ن. ت. رايت: «لقد خُلِقَ العالمُ حَسَناً لكنه *غير كامل*. يردد هذه الحقيقة أيضاً فيليب يانسي في كتابه الجديد *السؤال الذي لا يغيب*: « عندما ننظر إلى هذا العالم من أي عَدَسة، طبيعية أم لاهوتية، فإننا نراه «في مرحلة» خلل وعدم اكتمال ونقصان».[١٠]

وذات يوم، عندما تتم هزيمة كل قوى الشر والتمرد، سوف تستجيب الخليقة بسرور لمحبة خالقها، وسوف يغمرها الله بحضوره وبحياته الجديدة. هذا جزء من تَخَالُف المحبة، حيث المحبة الممنوحة مجاناً تخلق المجال للبشر لكي يبادلو الله المحبة (الله من محبته أعطانا الحُرية التي تُمَكِنا أن نستجيب للمحبة طوعاً، وأيضاً تُمَكِّننا من التمرد والشرّ) وهكذا تدور الدائرة التي فيها الحرية الكاملة والمحبة الكاملة لا يلغيان بعضهما البعض وإنما يحتفلان ببعضهما البعض ويُكَمِّلان بعضهما البعض (فبدون حرية لا تكون هناك محبة حقيقية، والمحبة لا تكون محبة إلا إذا مُنِحَت الحرية حتى للتمرد).»[١١]

لذلك لم يكتف الله بالطبيعة ليكتب بها رسالته الغرامية لجنسنا البشري، بل قَرّر أن يتواصل شخصياً مع البشر ليعلن لهم أنه شديد النعمة والرحمة والقبول، لكنه في نفس الوقت إلهٌ عادلٌ، بارٌ، وغيور. فمن خلال أعماله الفدائية ومن خلال مُتَحَدِّثِه الرسميّ موسى في العهد القديم، قال الله لبني إسرائيل: «سوف تكونون شعبي،

---

٩ حجي ٢: ٦ و رومية ٨: ١٨- ٢٦

١٠ فيليب يانسي. السؤال الذي لا يغيب. ترجمة عصام خوري (عمان: أوفير، ٢٠١٤) ص. ٣٨

11 N. T. Wright, Surprised by Hope,Rethinking Heaven, the Resurrection and the Mission of the Church (London:
Harper Collins E. books, 2008) p 102 (Location 1650) ما بين قوسين لي

وسوف أكون إلهكم». لقد اختبر بنو إسرائيل يهوه ككيان شخصي متواصل بشكل حميم مع شعبه. لقد كان مفهومهم عن الله مُتَفَوِّقاً بما لا يقاس عن مفاهيم الشعوب حولهم الذين لم تكن آلهتهم سوى صُوَراً وإسقاطات لإنسانيتهم بكل ما فيها من تفاهات وسفاهات ومن نزوات عُنف وجنس. لقد كانت آلهة الأمم آلهة غير مُستقرة لا يُمكن تَوَقّعها فهي ليست سوى تجسيداً للطبيعة غير المستقرة حولهم من رياح وعواصف وذكورة وأنوثة وخصوبة. أما إله إسرائيل فكان إلهاً قدوساً مُختلفاً، لكنه في نفس الوقت، كان إلهاً شخصياً حميماً. كان إلهاً يُمكن أن نرى صورته في الأشياء حولنا، لكنه في نفس الوقت يظل متسامياً عن كل ما حولنا. لقد أثبتت ملحمة «الخروج» أن الله يُمكن الوثوق به. إله ثابتٌ مثل صخرة وسط الرمال المتحركة التي يمتلئ بها الوجود حولنا.[١٢]

يحَفَل العهد القديم بصورٍ حميمة لمحبة «يهوه» لشعبه فهو النسر الذي حَمَلَ فراخه على جناحه،[١٣] وأتى بهم إلى أرض الحرية وهوالأم التي تحمل رضيعها بيديها وتضعه على رُكبتيها وتُدَلِّله.[١٤]هو الزوج الذي يَبسِط ذيله على محبوبته الصغيرة المُنتَهَكة التي طُرِحَت على وجه الحقل بكراهة نفسها، ولم تُشفق عليها عينٌ لتصنع لها كل ما ينبغي أن يُصنَع للطفلة الوليدة ويدخُلُ معها في عهد لتكون له ويُصيِّرها ملكة تتحدث الأمم بجمالها وبهائها.[١٥] وحتى إذا خانته وصارت لآخرين، فإنه وإن كان يسمح لها بأن تحصد نتائج أخطائها، لكنه أيضاً يذهب وراءها في البرية ويُلاطِفها[١٦] ويخطب وُدّها مرة أخرى رغم أنها هي التي تركته

12 Brennan Manning, *The Ragamuffin Gospel*, (Colorado Springs: Multnomah Books, 2005), 100.

١٣ الخروج ١٩: ٤

١٤ إشعياء ٦٦: ١٢، ١٣

١٥ حزقيال ١٦: ١- ١٥

١٦ هوشع ٢: ١٤

وزَنَت من خلفه. إنه إله العهد الذي لا ينسى أبداً عهد محبته الأبديّ. هو أيضاً الأبُ الذي لا يَنسى أبداً الأمانة والرحمة. إن ترك أبناؤه شريعته ولم يسلكوا بأحكامه، يفقتد بعصا معصيتهم وبضرباتٍ اثمهم، أما رحمته فلاَ ينزعها عنهم ولا يكذب من جهة أمانته. لا ينقضُ عَهْدَهُ ولا يُغير ما قد خرج من شفتيه.[١٧]

لم يكن عهد الرحمة والأمانة (هِسِد) الذي يشير إليه الرب مراراً في العهد القديم، مُجَرَّد كلام جميلٍ وأحلامَ أنبياء، بل كان فعلاً في تاريخ هذا الشعب رأوه بأعينهم جيلاً بعد جيلاً وأخبر به الآباء الأبناء والأحفاد. هو الذي شَقّ البحر أمامهم ووضع داخلَهُ اليابسة ليعبروها فوقها إلى الحُرية والكرامة بعد أن عاشوا عقوداً أذلاء مُسَخَّرين. وهو الذي على العَكس من ذلك، شق الحَجَرَ اليابِس المَيّت ليُفَجِّر فيه ماءًا عذباً لهم لكي يشربوا. هو الذي أطعمهم خبز السماء وأمطر عليهم لحماً لم يستطيعوا جمعه من الكثرة. حَماهم من المرض وشفاهم من الحَيّات. لم تَبلَ ثيابُهُم وأرجُلُهم لم تَتَوَرَّم.[١٨]هو الذي زَرَعهم في أرضٍ تفيض لبناً وعَسلاً ليجتنون كروماً لم يزرعوها ويبتكرون حقولاً لم يَعمَلوا فيها. لم يدع إنساناً يظلمهم بل وُبَّخ ملوكاً من أجلهم. جعل شَعْبَهُ مُثمراً جداً وأعزَّه على أعداءه.[١٩] وهو أيضاً الذي عندما ساروا في طُرُق الأمم حولهم وتَعَلَّقوا بالأوثان وأكلوا ذبائح الموتى وأجازوا أبناءهم وبناتهم في النار من أجل مولوك، رفع يده عليهم ليسقطهم في البرية. اقتحمهم الوبأ، لكنه كان في النهاية يمُد يديه ويشفيهم.[٢٠]كم أَكَلَت نارَهُ عُصاتَهم وعصيانهم، وكم ضرب بالموت من استهانوا به وبأوامره![٢١]وهو الذي كما زرعهم

---

١٧ مزمور ٨٩: ٣١- ٣٣

١٨ تثنية ٨: ٤

١٩ مزمور ١٠٥: ١٤. ٢٤

٢٠ مزمور ١٠٦: ٢٦- ٣١

٢١ صموئيل الثاني ٦: ٧

في الأرض، انتزعهم منها وسَبَاهُم إلى أيدي أعدائهم. وبسبب عهد أمانته، عَادَ ورَدَّهم إلى الأرض التي سُبُوا منها. هو الذي كان مراراً يتركهم لخطاياهم ليحصدوا ما قد زرعوه من اثم وخيانة، وهو أيضاً الذي يعود ويرحمهم ويدوس آثامهم ويطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم.[٢٢]

عِندما يكتب الرسول يوحنا بوحي الروح القدس أن الله مَحَبّة فهو يُدرك تماماً ما يقوله. الطبيعة من حوله تُذيع يوماً فيوماً محبة وأمانة الربّ،[٢٣] وتاريخ الشعب العبراني الذي يحفظه في قلبه، يشهد كيف أن مُفتاح شخصية يهوه هو أنه إله العهد الذي لا ينزع رحمته عن شعبه مهما كانت خطيتهم وصلابة رقابهم.

وليس أعظم ختاماً لأنشودة المحبة الإلهية من ذلك الشاب الثلاثيني الذي مَزَّقت جسده سياط الرومان ذات النهايات الحديدية التي غاصت في لحمه وخرجت، وغاصت وخرجت مِراراً لتنزع وتُهَتِّك كل عضلات ظهره التي صَنَعَتها أيامٌ طويلة من العَمل في ورشة النجارة منذ نعومة الأظفار، ليصنع فؤوساً ونوارج وسواقي رخيصة لفلاحي الجليل. أما رأسه التي كان يغطيها بشاله الأبيض ليقضي ليالِ الصلاة الطويلة فوق الجبل البارد، فقد غَرسوا فيها تاجاً مجدولاً من أقسى نباتات الشوك التي كان الفلاحون يقضون الساعاتِ لانتزاعها من أراضيهم فتُدمي أياديهم الخشنة. صار وَجهُهُ هكذا مُفسداً،[٢٤] لا يستطيع من ينظر إليه أن يعرف من هذا المُغطى بالدماء؟ الذي لا يستطيع أن يفتح عينيه، ليس بسبب قطرات عَرَقٍ تتقاطر من جبينه، وإنما نزيفٌ يجري كشلالٍ من فروة الرأس وجلد الجبين والحاجبين اللذان قد انتشبت بهما خناجر الشوكِ القاسي الذي قد جَفّ في الشمس.

٢٢ ميخا ٧: ١٩

٢٣ مزمور ١٩: ٢

٢٤ إشعياء ٥٢: ١٣

وبعد أن احتفل جنود الرومان على جسده المربوط من اليدين بقيودٍ إلى قطعةٍ من الخشب كالتي يضع الجزار عليها ذبيحته ليُقَطِّعَها، حَمَّلوه الخشبة المستعرضة للمذبح الروماني الذي سوف يُقَدّم عليه جَسَدَهُ كفارةً عن خطايا كل البشرية ماضياً وحاضراً ومُستقبلاً. عُلِّقَ يسوع عُرياً وعاراً على خشبةٍ عالية ليرى الجميعُ عورته،[٢٥] وهو الذي نَكَسَ رأسه لكيلا يرى عُريَ من جَرّوها ليطرحوها أمامه ليحكم برَجمِها، بل مال برأسه وكان يكتب على الأرض. رُبّما لم يستطع ينتصب وينظر إليها إلا بعد أن غادرَ من جاءوا بها واستطاعت أن تستر نفسها. صُلِب يسوع ككاسرٍ للسبت، مع كونه هو الذي أعاد السبتَ إلى أصله- حُرّيةً للإنسان وليس قيداً عليه، عندما شفى في السبت المرضى والمُعذَبين والمنُشَطِرة شخصياتهم. صاحوا: «اصلبه»، من أطعَمهم وشفا مرضاهم وتَحَنَّنَ عليهم كغنمٍ لا راعي لها. سَمَّروا بالمسامير الطويلة الغليظة، اليدَ التي لمست جلد الأبرص فأعادت له الحياة وفَتَّحت جفون الأعمى فأعادت لعينيه البَصَر. تآمرَ عليه «الشريرُ» مع الأشرار، واختار الآب أن يُترك الشر ينتصر عليه مرحلياً، لكي ينتصر هو على الشَرّ انتصاراً ساحقاً ونهائياً إذ قد صَنَعَ خلاصاً حاسماً ومجانياً لكي من يُدرِك ويؤمن. دخل المسيح إلى قُدس أقداس الوجود حاملاً كُلّ شَرِّنا وموتِنا لكي يُفَجِّره من الداخل وينفجر معه. تألّم الآب والأبن والروح معاً وهم يهضمون سموم الشر والعصيان التي سَرّت في شرايين الكيان الإنساني كُلّه منذ أن عَرِف الوعي والحرية والاختيار.

لم يكن كثيراً إذاً أن يكتب يوحنا أن الله محبة فقد رأى محبة الله بعينيه. رأى قلب الله يسير بينهم. يأكل معهم ويشرب، يُلهِب قلوبهم بالإيمان وعقولهم بالحِكمة. رآه وشاهده ولمسته يداه وهو يصرخ صرخات المحبة في البُستان، وعلى الصليب: «يا

٢٥ صُلِب يسوع عارياً تماماً. أما قطعة القماش التي نراها في الصوَر فمن خيال الرسامين والنحاتين.

أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يعملون»! وفي صباح الأحد، قام يسوع بوجودٍ إنسانيّ جديد، يُقَدِّمه مجاناً لكل من يريد ويقبل ويُقبِل.

إن محبة الله لا تواسينا بالكلام ولا تغفر لنا ذنوبنا سنةً بعد سنةً عندما نقوم بطقوسٍ مُعَيَّنة ونَحِجُّ إلى أماكنَ خاصّة ونقدم أضاحي مشفوعة بالصلوات والتضرعات والطاعات. ولا هي حتى تلك المحبة التي تشفي أجسادنا الفانية، التي إن طال الأجل أو قَصُر، سوف يواريها التراب وتهيلُ الأيام عليها رُكامَ النسيان. إن محبة الله التي يعلن عنها إنجيل يسوع المسيح، هي المحبة التي لم تفتد فقط أرواحنا، بل تعدنا أيضاً بوجودٍ جسديٍ جديد لا يقوى الموت عليه، تماما كما لم يقو الموت على جسد يسوع المسيح فقام ناقضاً أوجاع الموتِ، إذ لم يكن ممكناً أن ينتصر الموتُ على ربِ الحياة. الله محبة لأنه كما ألبسنا صورة آدم الأوَّل الترابيّ، سوف يُلبسناصورة آدم الأخير السماوي. إنه سوف يُلبِس فَسَادنا عدم فساد ويبتلع موتنا إلى حياة وضعفنا إلى قوة. سوف يُغَيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء.[٢٦] وفي الحياة الأخرى سنكون مثله لأننا سنراه كما هو.[٢٧] لم يقل يسوع أَنهَّ لَمَيِّت وأنَّنا لَمَيِّتون، بل قال: «إني أنا حَيٌّ فأنتم ستحيون».[٢٨]إن صورة الله في الجنس البشري هي تلك الدعوة للأمام التي يشعر بها كل البشر داخلهم. إنها دعوة للتطوُّر والتحقق والصيرورة. يكتب كارل بارت أنه «بإقامة يسوع من الأموات، قام الله بإضافة البُعد الأُخرَوي المستقبلي إلى تعريف الإنسان».

---

٢٦ فيلبي ٣: ٢١

٢٧ ١ يوحنا ٣: ٢

٢٨ إنجيل يوحنا ١٤: ١٩

بعد جلسات الاستماع الطويلة للجنة الحقائق والمصالحة التي ترأسها الأسقف الجنوب أفريقي ديزموند توتو، والتي استمع فيها إلى الفظائع اللاإنسانية التي ارتكبتها الأطراف المتصارعة في جنوب أفريقيا، خرج الأسقف الأسود ليُصَرِّح: «بالنسبة لنا كمسيحيين، فإن موت وقيامة يسوع المسيح، هما الدليل والإثبات على أن الحياة أقوى من الموت والمَحَبّة أقوى من الكراهية، وأن الحياة أقوى من الموت، والنور أقوى من الظلام، والضحك والفرح والرحمة واللُطف والحَق، كل هذه القيم أقوى بكثير مما هو عَكسها».[٢٩] في الأصحاح الثالث من رسالته لأهل كولوسي يقول بولس أنه متى أُظهِرَ المسيح، حياتنا، حينئذ سيُظهَر المؤمنون معه في المجد. هذه الحياة الروحية المُستترة في المسيح، والتي لا يراها العالم، سوف تنفجِرُ ظاهرةً في صورة واقع جسدي مرئي جديد عند مجيء المسيح الثاني.[٣٠] هذا هو «استعلان أبناء الله» الذي تنتظره الخليقة التي هي الآن تئن وتتمخض منتظرةً الانعتاق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. الألم في هذه الحياة حقيقي ويثير غضبنا وإحباطنا، لذلك فإننا، مع الخليقة كلها، نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا. رُبما لا يتدخّل الله كثيراً لمقاومة كل شر وفساد في هذا العالم لكنه قد افتدى العالم كله بكل ما فيه من ألم، وسوف يتم الإعلان التام عن هذا الافتداء عندما يظهر باقي المحصول الذي كان المسيح المُقام باكورته. يكتب دالاس ويللارد في *الخطة الإلهية*: « لم يحدث ولن يحدث لنا أي شيء لا يُمكن افتداؤه في طريقنا نحو مصيرنا النهائي في عالم الله الكامل».[٣١]

29 Desmond Tutu, *No Future without Forgiveness* (New York: Basic Books, 1996), 86.

30 N. T. Wright, *Surprised by Hope*, 149.

31 Dallas Willard, *The Divine Conspiracy*, 336.

في الجزء الأول من هذا الكتاب سوف نتأمل الموضوع الأول الذي يُقَدِّمه الأصحاح الرابع من رسالة يوحنا الرسول الأولى وهو أن *الله محبة وكذا المولود من الله.* ولأن الله محبة (آجابي) فهذه المحبة لا تأتي إلا من الله. ولأن هذه هي طبيعة الله الحصرية، فكل من تظهر في حياته هذه الطبيعة، فذلك هو الدليل الحاسم على أنه قد وُلِدَ من الله. أي حَدثت في حياته تلك «الطفرة الروحية» التي قد أكستبه طبيعةً جديدةً لم يكتسبها من أبيه الأرضي ولا من الناس حوله وإنما من أبيه السماوي.

هكذا في فصلين متتالين سوف نتأمل تصريحين أساسيين قدمهما الرسول يوحنا في هذا الأصحاح وهما أن المحبة تأتي من الله، وأن كل من يُحِب فقد وُلِدَ من الله ويعرف الله.

الفصل الأول

المحبة تأتي من الله

من خَلَقَ من عَدَم يُحِب بلا شروط

من ذا الذي صاغ من ألوانٍ وأشكالٍ لا حصرَ لها، تلك الكائناتِ الحيّة التي تملأُ العالمَ من حولنا وتتلاقح وتتكاثر صانعةً بذوراً من جِنسَها فتنتِج نفس الجمال جيلاً بعد جيل عبر ملايين السنين؟ من ذاك الفنان الذي أبدع كُلّ هذه اللوحات النابضة بالحياة ولم يضع توقيعه على أي واحدة منها؟ من هو النحّات الذي شَكَّلت يداه القَوِيَّتان تماثيلَ حَيّة ذات أحجامٍ مُذهلة في التَفَاوُت، من ضخامة الحيتان إلى دِقة الحشرات ورِقة الفراشات. وهي أيضاً تتناسل وتُنتِج كجنسها في انتظام بارِع. لقد خرجت كل أشكال الحياة هذه من بين يديّ الله المفتوحتين، دون أن ينتظر من أحدٍ اعترافاً؟ وهل مثله يحتاجُ اعترافاً من أحد؟ مَن ذا الذي لم يَكفِه ذلك القدر من التفاني وإنكار الذات، حتى أنه خَتم خليقته بصُنعِ خالقٍ صغيرٍ على صورته، ليُنافِسَ هُويحاول أن يرفع نفسه فوقه ويزاحمه في مُلكِه، فيصنع ويُبدِع ويرفَعُ صوته عَبر الهواء والأثير وتحت الماء وفوق السحاب ويضع توقيعاته في كلِ مكان. عندما يصنَعُ طائراً

ومع كُل هذا فإنه لم يسقط من رحمة خالقه المُحِبّ، فلم يُفنه ولم يزل يُشرِقُ عليه شمَسه ويُمِدُّه كل لحظة بقوة الوجود والحياة وإن كان من المتمردين وغير الشاكرين.

من حديد فإنه يكتب عليه اسمَهُ بحروف هائلة مع كونه يرى ملايين «الطائرات» الحَيّة تطير من قبله وتسافر عبر القارات بلا وقودٍ سُوى حَبّاتٍ من قمح ولم يلمح على أيّ منها اسمَ من صنعها. وعِندما يصنَعَ غواصة هائلة تجوب الأعماق، فإنه يملأها بالمدافع والطوربيدات ليُهدد بها بني جنسه، مع كونه يرى أعظم منها تجوب الأعماق عبر ملايين السنين وتتوارى عن العيون في خجلٍ فاتن، وبين الحين والآخر تُطلق نافوراتها المائية لتعلن السلام بدلاً من الحَرب. وليس ذلك فقط بل عندما اغْتَرَّ ذلك الخالق المخلوق بذكائه وعِلمه ومعرفته المتزايدة، بدأ يَنسِب كل ما في العالم إلى«الصُدفة»، فهو لا يريد خالقاً عاقلاً إلّاه. يُريد أن يأكل من كُل الأشجار ويصنع كل المصنوعات. يريد أن يصير هو الله. ومع كُل هذا فإنه لم يسقط من رحمة خالقِه المُحِبّ، فلم يُفنِه ولم يزل يُشرِقُ عليه شمَسه ويُمِدُّه كل لحظة بقوة الوجود والحياة وإن كان من المتمردين وغير الشاكرين.[1]

المحبة (آجابي) التي يتكلم عنها العهد الجديد هي نوعٌ خاصٌ من الحُب يتميز بالخروج التام من النفس للآخرين، وهذه هي السمة المُمَيِّزة والاستراتيجية المُختارة لله. الله خارج من نفسه دائماً. من يتأمل هذه اللوحة الهائلة من المخلوقات لابُد أن يتساءل، ليس فقط: «من خَلَقَ هذا؟»[2] ولكن أيضاً «لماذا؟» لماذا كل هذه الأنواع متعددة الألوان والأشكل والتصميمات من الحشرات والأسماك والزهور والصخور والطيور؟ إننا إذا حاولنا أن نتخيل فَنّاناً غزير الإنتاج في الكَم والتنوُّع، فإننا حَتماً سنتخيل شخصاً غارقاً في الإبداع حتى أنه لا يكاد يأكل أو يشرب. لا يُفكِّر في نفسه للحظة، بل رُبما ترك شعره يطول ولم يُغَيِّر ملابسه بل هو مُستغرقٌ تماماً فيما يصنع ويُبدع. شخصٌ شارد الذهن خارجٌ عن نفسه تماماً، يكاد يفقد نفسه فيما

١ إنجيل لوقا ٦: ٣٥

٢ إشعياء ٤٠: ٢٦

يصنع، لدرجة أنه لا يهتم بردود أفعال من يُحِبُّهم لأنه يقضي كل وقته ويصرف كل انتباهه في أن يُفكِّر كيف يُحِبَّهُم هُوَ.

إن كان الله محبة، فالمحبة تأتي من الله. هذا ما يؤكده الرسول يوحنا هنا. هذا النوع من المحبة غير المشروط تماماً والخارج تماماً من النفس للآخرين، لا يقوى عليه إلا من خلق الكون من العَدَم والذي هو مصدر الحياة كله والعِلّة الأولى لكل ما هُو موجود. من يُحِبّ بهذه الطريقة يجب أن يكون حُرّاً تماماً و غير محتاجٍ لشيء أو لشخص. لكن ينبغي أن ينشأ السؤال: «كيف يُحِبّ من لا يحتاج؟» ألا يَجعله عدم الاحتياج هذا غير مُتأثرٍ؟وكيف يُحب من لا يتأثر؟ أليست المشاعر هي ببساطة «التأثُّر» وكيف يتأثر من ليس له احتياجٌ يؤثرُ فيه؟

يرُد الكتاب المقدس على هذه التساؤلات بأن يؤكد أن الله الكامل الحرية، استخدم حُرّيته لكي يُحِدّ من حُرّيته ويجعل نفسه بنفسه مُتأثراً برد فعل من يُحبّه[٣]. بالرغم من أن العهد القديم يؤكد أن الله مختلفٌ تماماً عن الإنسان فهو ليس إنساناً فيكذب ولا ابن إنسان فيندم.[١٩] أفكاره ليست أفكارنا ولا طُرُقنا طُرَقَهُ، وكما عَلت السموات عن الأرض هكذا علت طرقه عن طُرُقِنا.[٤] إلا أنه أيضاً يُقدِّم الله في صورة إنسانية مُتفاعلة مع الإنسان ومع سلوكياته، دون تغيير أو ظِلِ دوران. فهو المحب الغيور الذي تركته محبوبته وذهبت وراء غيره، والزوج المجروح الذي خانته زوجته وزَنَت مع آخرين. هو أيضاً الأب الذي يعاني من عقوق أبنائه والأم التي لا تنسى رضيعها. بل أكثر من ذلك، فقد اختارت الكنيسة، في العهد القديم والجديد أن تَتَّخِذ من قصيدة حُب بشرية رمزاً لمحبة الله لشعبه وتأثره به للدرجة التي تجعله يبدو

3 Jürgen Moltmann, *God in Creation, A New Theology of Creation and the Spirit of God* (Minneapolis: Fortress Press, 1993), 87- 88.

٤ إشعياء ٥٥: ٨، ٩

ضعيفاً مثل البشر.[٥] لقد اختار الله بقرار سيادي حُرّ أن «يَتَجَسَّد». أي أن يجعل نفسه مُتأثراً بنا. وهذا ليس فقط في يسوع المسيح، وإنما من البداية. فأن يتنازل الله ويتكلم مع موسى، وينزل على جبل سيناء ويكتب الوصايا العشر «بيديه» فهذا ليس إلا تَجَسُّداً وتَأَنُّساً

الله الذي بطبيعته قادرٌ ألا يتأثر بنا تماماً، اختار أن يجعل نفسه متأثراً بنا ومتفاعلاً مع قراراتنا ومواقفنا ولعل أوضح مثال لذلك ما قاله الرب لإرميا عند الفخاري وذلك في الأصحاح الثامن عشر من نبوة إرميا: «قُمِ انْزِلْ إِلَى بَيْتِ الْفَخَّارِيِّ وَهُنَاكَ أُسْمِعُكَ كَلاَمِي». فَنَزَلْتُ إِلَى بَيْتِ الْفَخَّارِيِّ، وَإِذَا هُوَ يَصْنَعُ عَمَلاً عَلَى الدُّولاَبِ. فَفَسَدَ الْوِعَاءُ الَّذِي كَانَ يَصْنَعُهُ مِنَ الطِّينِ بِيَدِ الْفَخَّارِيِّ، فَعَادَ وَعَمِلَهُ وِعَاءً آخَرَ كَمَا حَسُنَ فِي عَيْنَيِ الْفَخَّارِيِّ أَنْ يَصْنَعَهُ. فَصَارَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ قَائِلاً: «أَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصْنَعَ بِكُمْ كَهذَا الْفَخَّارِيِّ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟ هُوَذَا كَالطِّينِ بِيَدِ الْفَخَّارِيِّ أَنْتُمْ هكَذَا بِيَدِي يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ. تَارَةً أَتَكَلَّمُ عَلَى أُمَّة وَعَلَى مَمْلَكَة بِالْقَلْعِ وَالْهَدْمِ وَالإِهْلاَكِ، فَتَرْجِعُ تِلْكَ الأُمَّةُ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَلَيْهَا عَنْ شَرِّهَا، فَأَنْدَمُ عَنِ الشَّرِّ الَّذِي قَصَدْتُ أَنْ أَصْنَعَهُ بِهَا. وَتَارَةً أَتَكَلَّمُ عَلَى أُمَّة وَعَلَى مَمْلَكَة بِالْبِنَاءِ وَالْغَرْسِ، فَتَفْعَلُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيَّ، فَلاَ تَسْمَعُ لِصَوْتِي، فَأَنْدَمُ عَنِ الْخَيْرِ الَّذِي قُلْتُ إِنِّي أُحْسِنُ إِلَيْهَا بِهِ.

الله الذي هو الصانع ونحن الطين، قادرٌ ألا يتأثر تماماً بالطين، إلا أنه اختار أن يجعل نفسه متأثراً متافعلاً مع خليقته.

---

٥ نشيد الأنشاد ٦: ٥

صُوَرُ المحبة الإلهية

تتجلى صُوَر المحبة غير المشروطة في *المُبادَرة والعطاء وفي الغفران، والتضحية.* وليس الإنجيل الذي يحكي قصة حياة وأعمال وموت وقيامة يسوع المسيح، سوى سِجِلٍ ينضح بهذه الأوصاف الثلاثة للمحبة (آجابي) من خلال تعليم وحياة وأعمال يسوع المسيح. كانت شخصية يسوع المسيح تتمَيّز **بالمُبادرة** في كُل شيء. كان يسوع ذاهباً دائماً. هو الذي يُبادر ويُظهِر هيكله دون أن يطلب منه أحد.[٦] ثم ها هو يقترب من المرأة السامرية ويطلُب منها أن تعطيه شَربة ماء.[٧] ثُم يقترب من مريض بركة بيت حسدا ليسأله إن كان يريد أن يبرأ.[٨] أما عن اختياره لتلاميذه، فلم ينتظر أحداً أن يأتي إليه، ففي بداية خدمته ذهب إلى البَرّية صائماً مُصَلّياً لكي ينال الإرسالية والقوة الروحية، ثم لم ينتظر أن يأتي إليه التلاميذ ويطلبوا أن يكونوا معه، بل ذهب هو إليهم ودعاهم، وذلك على عَكس المُتَّبع في ذلك الوقت. فقد كان التلاميذ، ولا زالوا، هُم الذين يطلبون أن يَتَتَلمَذوا على يد المعلمين، خاصة المشهورين منهم. حَكّي لي مؤخراً أحد الأصدقاء الذين يقومون بتحضير رسالة الدكتوراة في الولايات المتحدة الأمريكية أنه سَمِع عن أستاذ شهير متخصص في الموضوع الذي يقوم بتحضير رسالته فيه، فقضى نحو ثلاثة أشهر يراسله دون رد، لكنه قد قَرَّر ألا ييأس وواصَلَ إرسال الرسائل الالكترونية حتى ضجر منه الأستاذ وذات يوم حصل منه على رسالة مقتضبة يقول له فيها أنه بالصُدفة سيكون في المدينة التي يقيم بها بعد ثلاثة أيام وأنه يستطيع أن يعطيه ثلاثين دقيقة فقط بين محاضرتين سوف يقوم بإلقاءهما في الجامعة. عندما جلس صديقي أخيراً مع مُعلمه

٦ إنجيل يوحنا ٢: ١٢

٧ إنجيل يوحنا ٤: ٧

٨ إنجيل يوحنا ٥: ٦

المرموق وشرح له موضوع الرسالة، أعطاه الأستاذ أسماء خمسين كتاباً وطلب منه أن يقرأ هذه الكُتب الخمسين ويقدم تقريراً عنهم في وقت لا يتجاوز ثلاثة أسابيع إن كان بالفعل يريده أن يشارك في الإشراف على رسالته. هكذا يتعامل المعلمون المرموقون مع من يريدون أن يتتلمذوا على أياديهم. أما يسوع فهو الذي ذهب إلى هؤلاء الصيادين البُسطاء ليدعوهم لكي يكونوا معه.[٩] لكن هذا ليس معناه أن يسوع كان يفرض نفسه على أحد لكنه كان يبحث ويذهب إلى من يعرف أن قلوبهم بالفعل تبحث عن الله. لم يكن يسوع اعتمادياً يطلُب إرضاء الناس. على العكس، فعندما رجع بعض من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه، التفت إلى الاثنى عشر وسألهم إن كانوا هُم أيضاً يريدون أن يمضوا.[١٠] ذلك لأنه، كما يكتب يوحنا، عَلِمَ من هُم الذين يؤمنون ومن هُم الذين لا يؤمنون. ثُم في النهاية حين تَمَّت الأيام لارتفاعه، كما يكتب لوقا البشير، نَبّت وجهه نحو أورشليم[١١] حيث كان يَعلَم أنه هُناك سوف يُقَدِّم جسده ذبيحة عن كل خطايا العالم. في الطريق إلى ذلك «المذبح»، لم يكُن فقط مُبادراً بالذهاب بل قاوَم المُحاولات التي قام بها كثيرون[١٢] لإثنائه عن هذا العمل، لكنه كان يعرِف هَدَفه جيداً وكان ذاهباً إليه. صحيحٌ أن بعض المشاعر والمخاوف انتابته لكنه كان يلجأ بها إلى الآب مُصلياً: «ليَكُن لا ما أُريد أنا، بل ما تُريدُ أنت».[١٣]

لذلك لم يكن غريباً أن يقول الرسول يوحنا في العدد التاسع من الأصحاح الرابع من رسالته الأولى أن مَحَبّة الله قد أُظهِرَت من خلال *مُبادرة إلهية تامّة* حيث إن الله

٩ إنجيل يوحنا ١٥: ١٦

١٠ إنجيل يوحنا ٦: ٦٧

١١ إنجيل لوقا ٩: ٥١

١٢ إنجيل متى ١٦: ٢٢- ٢٣ . يوحنا ٦: ١٥

١٣ إنجيل مرقس ١٤: ٣٦

قد أرسَل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. ثم يُضيف الرسول: «فالمحبة الحقيقية ليست أننا أحْبَبنا الله، بل أنه هُوَ أَحَبَّنا، حتى أنه أرسَلَ ابنه ذبيحةً عن خطايانا».[١٤] وهو هُنا يُردد صدى بولس الرسول أيضاً الذي استفاض في إلقاء الضوء على هذه المُبادرة الإلهية غير المُستَحَقَّة (النعمة) في رسالته إلى أهل رومية.[١٥]

> ليست المسيحية إذاً ديناً وإنما هي نقلةً تطوُّرية للبشرية معروضةً لكل من يريد من البشر، ولكل من يُعَبِّر عن إرادته هذه بالإيمان والطاعة والالتصاق بالمسيح الذي هو باكورة هذه النقلة النَوعية للوجود البشري.

أما**عطاء الله** فيتجلّى في يسوع المسيح في الكثير من الأعمال والأقوال، فعندما يلمس الأبرص ويوبّخ الفريسيين الذين لم يُمَكِّنوا المحبة للمَرضى والفقراء والمُهَمَّشين في المجتمع، فهو يُعلن محبة الله. عندما يمتدح السامريّ الصالح، ويتكلم مع السامرية ويأتمنها على سِرَّهُ اللاهوتيّ أنَّهُ هو المسيا، وعندما يبيت عند زكا العشار، فهو يعلن محبة الله لكل أنواع البشر وكل المواقف الإنسانية. عِندما يتحدّى منطق الاستحقاق في أمثاله، كمثل الوزنات ومثل الفعلة في الكرم والابن الضال، فهو يعُلن الكيفية التي يُفَكِّر بها الله، فهو الراعي الصالح الذي له مئة خروف، ويترك التسعة والتسعين خروفاً ويذهب لكي يبحث عن الخروف الضال ولا يهدأ إلا بعد أن يجده. وهو رب العمل الصالح الذي لا ينظر إلى عمل الفعلة الذين عملوا ساعة واحدة، وإنما ينظر إلى احتياجهم. عِندما تَحدّى يسوع سامعيه في الموعظة على الجبل أن يُحِبّوا أعداءهم، ساق لهم المُبَرِّر لذلك عِندما أشار إلى عطاء الله غير المشروط للبشرية، فهو الذي يجعل الشمسَ تُشرق على الخطاة والصالحين، ويرسل المطر

١٤ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ١٠ (الترجمة العربية المُبَسَّطة)

١٥ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٥: ٦-٨ و ٨: ٣- ٤

إلى الأبرار والأشرار.[١٦]

الله يعطي الكثير، لكن عطيته الحاسِمة هي نفسه. والمقصود بهذا ليس فقط إعطاء نفسه ذبيحة وكَفَّارة، بل أيضاً أن الله يعطيك الإمكانية لأن تكون مثله. هذا هو محور إرسالية المسيح. لذلك فهو يطلب منّا أن نُريد وننوي أن نُحِبّ حتى أعداءنا لأن هذه الإرادة وتلك النية هي بمثابة شَربة الماء التي طلبها من المرأة السامرية لكي يُعطيها «عطية الله» المُعجزية التي تحولها من امرأة تأتي لتستقي من البئر، وما أكثر الآبار التي نجري وراءها لكي نستقي، إلى إنسانة بداخلها نَبعٌ ينبع إلى الأبد. إنها الخليقة الجديدة التي تبدأ هُنا ولا تنتهي أبداً. لذلك يقول الرسول يوحنا أن كل من يُحب (هذا النوع من المحبة غير المشروطة التي يُمكن أن تصل إلى محبة الأعداء) فقد وُلِدَ من الله، أي نال طبيعة جديدة مشابهة لله كما ينال المولود شَبَهَ والده. وبالمثل يقدم لنا في الموعظة على الجبل هذه العطية العُظمى وهي «فتكونوا بذلك أبناء أبيكم الذي في السماء».[١٧] هذه هي المكافأة التي يتكلم عنها عندما يقول: «فإن أحببتم من يحبونكم فقط، فأية مكافئة تستحقون؟». ليست المكافأة كما يقول«الدين» دائماً، نجاةً من النار، أو نوالاً للنعيم. إن المكافأة التي يقدمها المسيح هي مكافأة «تغيير الطبيعة». ليست المسيحية إذاً ديناً وإنما هي نقلةً تطوُّرية للبشرية معروضةً لكل من يريد من البشر، ولكل من يُعَبِّر عن إرادته هذه بالإيمان والطاعة والالتصاق بالمسيح الذي هو باكورة هذه النقلة النَوعية للوجود البشري. يكتب ن. ت. رايت عن هذه العطية غير القابلة للفساد: «إن الميراث الإلهي المستقبلي الذي يعدنا الله به يتمثل في العالم الجديد غير القابل للفناء والأجساد الجديدة القادرة على الحياة في هذا العالم الجديد. هذا الميراث محفوظٌ

١٦ إنجيل متى ٥: ٤٥ ب (الترجمة العربية المُبَسَّطة)

١٧ متى ٥: ٤٥ أ (الترجمة العربية المبسطة)

لنا في السماويات حتى يأتي الوقت الذي سوف نعيشه فيه في الأرض الجديدة والسماء الجديدة.»[١٨]

أمّا عَن **الغفران الإلهي** فكان يسوع يؤكد بالأقوال والأفعال معاً أنه، هو نفسه، يُجَسِّد الغفران والشفاء الإلهي معاً.

عندما استقر السرير أمام يسوع في وسط المنزل كان الرجل يملؤه الخوف من الجموع الغاضبة المتذمرة التي أحاطت به ولم تطمأنه إلا نظرات يسوع الحانية وابتسامته الهادئة عندما قال له: «يا بُنيّ. مغفورةٌ لك خطاياك». حدث صمت بين الجموع. التفت يسوع إلى بعض الكتبة الجالسين وقال: «لماذا تفكرون في قلوبكم أنني قد كَفرتُ عندما قلت لهذا الرجل المسكين أن خطاياه مغفورة؟ أنا أعلم أن الذي يغفر الخطايا هو الله. ولكي تعلموا أن الله قد أعطاني هذا السلطان ها أنا أقدم لكم دليل كلامي. يا بُنيّ، قُم احمل سريرك واذهب إلى بيتك».[١٩]

بالفعل لا يستطيع أن يغفر الخطايا إلا الله. الله هو الذي عندما يغفر ينسى، وعندما يُسامِح لا يَمِنّ. غفرانه يسبق توبتنا، وما توبتنا إلّا المجيء إليه وقبول غفرانه الذي كان موجوداً طوال الوقت. إنه الأب المُحِب الذي لم يسمح للابن الضال أن يُلقي خطبة الاعتذار التي أعدها وتَدَرَّب عليها في الكورة البعيدة، بل لم يلتفت إليه وهو يعتذر، وإنما التفتَ إلى عبيده لكي يُعِدوا للوليمة. الله وحده هو الذي يستطيع أن يصنع من الغفران أمراً مجيداً يُحِبُ المغفور له أن يتذكره دائماً. إن الله يشعر دائماً

18 N. T. Wright, *Surprised by Hope, Rethinking Heaven, the Resurrection, and the Mission of the Church*, (London: Harper Collins e- books, 2008) 152.

١٩ أوسم وصفي. *مملكة الله. المستقبل المحلّ بيننا* (القاهرة: بي تي دبليو. ٢٠١٣) ص. ٩٢

بالسعادة أن يغفر لنا، حتى أنَّ من يُعطونه هذه الفرصة لكي يغفر، لا يشعرون أنهم مصدرٌ للضيق وقد تم الغفران لهم لكي يغربوا عن وجه من غفر لهم ولا يعودوا يزعجونه، وإنما يشعرون أنهم أطفالٌ محبوبون مُدَلَّلون، ومفهومون، بل ومصدرٌ لسعادة الله عندما يغفر لهم. إنهم عندئذ يكتشفون أنهم أفضل كثيراً مما ظنوا في نفسهم. لذلك رُبما يصيحون: «ما أجمله من خطأ ذاك الذي جعلني أكتشف كل هذا الحُب!». إننا إن لم نكن خطاة ونحتاج الغفران أكثر من الخبز، لَمَا اختبرنا عُمق هذه المحبة الإلهية.[٢٠]

وقفت استير في المنتصف وقد تجمَّدت أوصالها تماماً وتعلَّقت عيناها بالأرض ولم تستطع أن ترفعهما، أما بنيامين فكان جالساً وسط الجمهور وقد ضم ركبتيه إلى صدره ودفن رأسه فيهما ولم يُرِد أن يرفع رأسه أيضاً. قال يسوع: «أين هُم المشتكون عليك؟». حاولت استير أن تَرُدّ لكن صوتها لم يخرج أول مرة، فجاهدت أكثر حتى خرج صوتها مشروخاً واهناً: «لا أحد يا سيد».قال يسوع: «ولا أنا أحكُمُ عليكِ. اذهبي ولا تعودي تخطئين»، استدارت استير وهي تريد أن تجري بأقصى سُرعَتها لكيلا يُمسك بها أحد، لكنها لم تستطع أن تُحَرِّك ساكناً. بعد عدة دقائق بدأ جسدُها يتجاوب، ومشت ببطء. لم يكُن بطء جسدها بسبب الجراح والسجحات من طول ما سحلوها ودفعوها من بيتها الصغير خارج سور المدينة إلى ساحة الهيكل، بقدر ما كان من هول ما حَدَث ومن تأثير نظرة يسوع وكلماته لها.[٢١]

---

20 Louis Evely, *That Man is You* (New York: Paulist Press, 1964), p. 121.

٢١ أوسم وصفي، *مملكة الله*، ص. ٢٤٣

ليست المحبة الإلهية مجرد عطاء من غنيّ، وليس فقط غفران بكلمة، وكأن الخطية لا قيمة لها، ولكن لكون المحبة الإلهية مقرونة دائماً بالعدل الإلهي كانت **التضحية والكفارة** دائماً علامة ضرورية من علامات المحبة الإلهية (آجابى). ولعلَ سائلٌ يتساءل: «لقد غفر يسوع بكلمة. لماذا لا يغفر الله لنا بكلمة ولا يكون هُناكَ داعٍ لكفارة وذبيحة؟». لقد فعل يسوع ذلك وهو في طريقه إلى الصليب لكي يُقدم نفسه كَفَّارة عن الجميع. كان الصليب في عقل وقلب يسوع دائماً ومنه كانت تخرج كل مواقفه. عندما سأله تلاميذ يوحنا عن الصوم قال: «سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ الْعَرِيسُ عَنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ».[٢٢] وعندما اعترض يهوذا على إتلاف الطيب على قدمه قال: «اتْرُكُوهَا! إِنَّهَا لِيَوْمِ تَكْفِينِي قَدْ حَفِظَتْهُ، لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ». لقد كان يسوع يُدرك جيداً السبب الرئيس لمجيئه وقد صَرَّح بذلك عندما دعا تلاميذه وقال لهم: «ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ».[٢٣] إن الذي قد غَفَر بكلمة لم يفعل ذلك سوى لأنه هو نفسه الكفارة والذبيحة. لذلك يكتب عنه الرسول يوحنا في مستهل الأصحاح الثاني من رسالته الأولى: «أأبنائي الأعزاء، إني أكتب إليكم هذه الأشياء، حتى لا ترتكبوا أي خطية. لكن إن ارتكب أحدُكُم خطية، فإن لنا شفيعاً عند الآب هو يسوع المسيح البار، وهو الذبيحة الكافية للتكفير عن خطايانا».[٢٤]

إن الذي قد غَفَر بكلمة لم يفعل ذلك سوى لأنه هو نفسه الكفارة والذبيحة.

٢٢ إنجيل متى ٩: ١٥

٢٣ إنجيل متى ٢٠: ٢٨

٢٤ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٢: ١ (الترجمة العربية المُبَسَّطة).

لقد عاش يسوع لكي يعكس محبة الله غير المشروطة بكل ما فيها من مبادرة وعطاء غير مشروط وغفران للخطاة، وفي النهاية عندما يُقدّم نفسه ذبيحة عن خطايا البشر، فهو يعلن أنه ليس لأحد حُبٌ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه من أجل من يُحِب.[٢٥]

٢٥ إنجيل يوحنا ١٥: ١٣

الفصل الثاني

كُل من يُحِبّ

اختبار الحامض النووي

نحن نعرف بسهولة من هو المخلوق من الله، لكننا لا نستطيع أن نعرف بالتحديد من هو المولود من الله. السِمة الأساسية لمن هو مولود من الله بحسب ما يكتب يوحنا الرسول، هو أنه يستطيع أن يُحب محبةً غير مشروطة والتي تظهر من خلال صُوَرَها التي ذكرناها سابقاً: المُبادرة، والعطاء والتضحية والغفران. هذا بطبيعة الحال يحدث بين المولودين من الله بدرجات متفاوتة بحسب نُمُوِّهم الروحي. أما غير المولود من الله، وإن كان عادةً ما لا يفعل هذه الأشياء، إلا أنه لا يزال يَتَعَجَّب مِمَّن يفعل ويُعجَب به. لماذا؟ لأن المحبة غير المشروطة مكتوبة في صورة الله التي في كُل إنسان والتي تُشكِّل الذات الحقيقية للإنسان المأسورة في ذاتٍ مُزَيَّفة فاسدة. إن القانون الأخلاقي المحفور في عُمق أعماق ضمير البشر هو قانون المحبة. وهم، وإن كانوا لا يَقوون على استقبال وإرسال هذا النوع من المَحَبّة، إلا أنهم عندما يرونها تُدرِك قلوبهم أنهم واقفون على أرض مُقَدَّسة. إن هذا النوع من المحبة يخاطب «الصندوق الأسود» القابع في أعماق بحر حياتهم حيث غرقت

> في واقع الأمر لا تستطيع مُجَرَّد «عقيدة» أن تصنعَ هذا النوع من الغفران. إنها بالأحرى «طبيعة» جديدة.

سفينة الصورة الإلهية مُنذ أجيال سحيقة. يتكلم ك. س. لويس عن الفرق بين المخلوق على صورة الله والمولود من الله باستخدام تعبرين هما *قُرب المشابَهة* و*قُرب الاقتراب*:

«على قمّة الجَرف، نكونُ قريبين من القرية. ولكننا مهما أطلنا المُكُوث هناك (أي على قمة الجرف) لن نكون أقرَبَ البَتّة إلى حَمّامَنا وشايَنا (أي الحياة في المنزل داخل القرية). وهكذا الحال هُنا؛ فإن ما أضفاه الله من مُشابهة ــ ومن قُرب بهذا المعنى ــ على بعض خلائقه وبعض حالات تلك الخلائق، هو أمرٌ محسوم ومُرَسَّخ. وماهو قريبٌ منه بالمشابهة لن يكون، بمقتضى تلك الحقيقة وحدَها، أقرب بَعدُ بأيَّة حال. غير أن قُرب الاقتراب، تعريفاً، هو قُربٌ مُتزايد. وفي حين أن المُشابهة مُعطاةٌ لنا ـ ويُمكن أن تُقبل بشُكرٍ أو بلا شكر، ويُحسَن استعمالُها أو يُساء، فإن الاقتراب شيء يجبُ أن نقومَ به، وإن كانت النعمة تُنشِئُهُ وتُعَضِّدُهُ.»[1]

لا أستطيع أن أنسى ذلك المُذيع التلفزيوني الذي ظَلّ مع غيره كثيرين طوال ما يزيد عن ثلاث سنوات هي عُمر اندلاع ثورة الربيع العربي في مصر، ينادي مطالباً القضاء والحكومة بالحصول على «القصاص لدم الشُهَداء».[2] لا أستطيع أن أنسى رَدّ فعله الذي امتزج فيه التَعَجُّب بالاعجاب عندما استضاف في مداخلة تليفونية في

---

١ ك. س. لويس. *المحبّات الأربع*. ترجمة سعيد ف. باز (عَمّان: أوفير، ٢٠١٠) ص. ١٥، ١٦

٢ الحكومات مُطالبة بتطبيق العدالة والاقتصاص من الشرّ (عينٍ بعين وسنٍ بسن) لتحقيق الحد الأدنى من السلام الاجتماعي. أما المولودون من الله في خليقة روحية جديدة على مستوى وجودي آخر. فهم الذين يمارسون الغفران وذلك بمبادرة فردية روحية لا ينبغي ولا يُمكن أن يطالبوا بها الآخرين الذين لم تحدث فيهم مثل هذه «الطفرة الروحية» ولا يُمكن ولا ينبغي أن تقوم بها الدُوَل والحكومات التي تُمَثِّل وتقود شعوباً تغلب عليها الطبيعة العتيقة. تماماً مثل شعب إسرائيل الصَلب الرقبة الذي أُعطِيَت له شريعة القصاص لتحقيق الحد الأدنى من العدالة فيه.

برنامجه، والد الخادمة القبطية الأرثوذكسية التي قُتِلت لمُجرّد أنها مسيحية ترتدي الصليب ذاهبةً مُتَطوِّعةً إلى مكان خدمتهاوذلك في إحدى المسيرات الإرهابية التي اجتاحت البلاد خلال النصف الثاني من سنة ٢٠١٣ عقب ثورة الثلاثين من يونيو. فوجِئَ المُذيع والمشاهدون أن الأب لم يُطالب، كالعادة، بالقصاص وإنما صَلّى أن يغفر الله لقاتلي ابنته. لا أستطيع أن أنسى كيف انبهر ذلك المُذيع، ثُم ما لبث أن قال كيف أن هذه هي «عقيدة المسيحيين». في واقع الأمر لا تستطيع مُجَرَّد «عقيدة» أن تصنعَ هذا النوع من الغفران. إنها بالأحرى «طبيعة» جديدة. إنها نفس الطبيعة التي جعلت كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية تفتح أبوابها لمستشفى ميداني لعلاج المصابين من كافة الانتماءات السياسية والدينية أثناء أحداث الثورة في ميدان التحرير في كل مراحلها، وتتلقى في أثر ذلك قنابل الغاز وإلقاء الحجارة من بعض الجماعات التي كانت تقوم الكنيسة بمعالجة المنتمين لها. وليس ذلك فقط بل فتحت الكنيسة أبوابها ليمارس فيها المسلمون الوضوء والصلاة. نفس الشيء فعلته كنيسة مصر الجديدة الإنجيلية عندما انتقل مسرح الأحداث من التحرير إلى مصر الجديدة بالقُرب من قصر رئاسة الجمهورية (الاتِّحادية) وذلك خلال أحداث العُنف والقَتل المعروفة «بأحداث الاتِّحادية» في ديسمبر ٢٠١٢.[٣]

لذلك يقول الرسول يوحنا أن كل من يُحِبّ بهذا النوع من المحبة الإلهية فذلك هو الدليل الأكيد أنه قد حصل على هذه الطبيعة. أي أنه قد وُلِد من الله، كما لو كانت المحبة (آجابى)، بما لها من صور المُبادرة والعطاء والغفران، هي اختبار الحامض النووي الذي يثبت بنوَّتنا لأبينا السماوي. وليست المحبة دليلاً فقط على

٣ لا يُمكنني أن أغادر هذه النقطة دون أن أدعو نفسي وأدعو قُرّائي لفحص النفس في ضوء الإعلان الإلهي الخارق. إن كانت هذه السلوكيات نابعة بالفعل من محبة حقيقية ورؤية حقيقية للآخر ومأساة وجوده. أم أنها مجرد رغبة في إثبات «كم نحن أفضل!» وإن كانت هناك مثل هذه الشوائب في معدن المحبة الإلهية. أن ندعوه أن ينقينا منها.

الولادة، لكنها أيضاً دليل على العلاقة فمن يُحب هذا النوع من المحبة، فهو الذي يعرف الله ويعيش في عِشرة وثيقة معه. إن شبه الابن بأبيه لا يكون فقط بسبب «جينات» قد وُرثها بالولادة، لكنه أيضاً يَتَقَمَّص شخصية أبيه من خلال العلاقة الحميمة، أي أنه يُمارس، كما يقول ك. س. لويس، قُرب الاقتراب من الله وليس فقط قُربَ المُشابهة الذي يحصل عليه كُلُّ البشر بالخَلق. ولأننا نتكلم عن ولادة روحية وليست جسدية، فإن الميلاد الروحي الحقيقي من الله يُنشيءُ بالضرورة ميلاً واضحاً للاقتراب من الله.

ربط يسوع بين نفسه وبين «صعاليك» هذا العالم.

إن كان الله هو المُبادِر دائماً فالمولود من الله أيضاً **يُبادِر**. وتبدأ المُبادَرة بشعور في القَلب يَحُثُّك أن تخرج من دائرة نفسك وتخرج عن طريقك لتتواصل بشكل مُحبّ مع الآخر. أَتَصَوَّر أن الروح يصنع هذا الحَث بشكل مستمر في قلوب من وُلِدوا من الله، لكننا في أغلب الأحيان نُطفئ، أو على الأقل لا ننتبه لهذه الشرارات الإلهية للمَحَبّة، إما بسبب انشغالنا في أمورنا، أو بسبب خجلنا وخوفنا، أو بسبب حياة المدينة التي تجعلنا نعيش في جُزر نفسية مُنعزلة حيث يتكلم دانييل جولمان عمّا يُسمّيه «غيبوبة المدينة» Urban Trance وهي الغيبوبة التي يفرضها على نفسه ساكن المدينة لكي لا يتجاوب مع كُل ما يحدث حوله من مثيرات عاطفية. فلا يسمح لنفسه بأن يتأثر بضغوط الشارع أو زحام المواصلات أو المضايقات أثناء القيادة أو حوادث الطريق، وأيضاً لكيلا يتعاطف مع المُشَرَّدين أو الشحاذين أو غير ذلك. أما يسوع فيتحدّانا أن العلاقة معه لا تُتَرجم إلا من خلال تفاعلنا مع من يسميهم «إخوته الأصاغر»[٤] هكذا ربط يسوع بين نفسه وبين «صعاليك» هذا

---

٤ إنجيل متى ٢٥: ٤٠

العالم.[5]

منذ عدة أيام كُنت أستقِلّ سيارتي في الصباح من أمام البيت مُستَعِداً لبداية يوم جديد. في مثل ذلك الموقف عادةً ما يبدأ ذهني في التفكير في العُملاء الذين سوف أقابلهم في العيادة اليوم بحسب الجدول المُحَدّد، أو يظل ذهني يدور فيما قرأته في الصباح أو ما أريد أن أكتبه قبل أن يطير من ذاكرتي، أو أُسائِلُ ذاكرتي: «هل عليّ اليوم أن أدفع فاتورة مُستَحقة؟» أو«كيف سوف أُدّبر مبلغ ذلك القِسط للمطبعة أو لمدرسة الأولاد؟» قبل أن أدخل هذه الدوّامة، وقع بصري على رجلٍ خمسيني رقيق الحال يرتدي ملابس قديمة وينتعل خُفّاً رَثَّ الحال ويسير بين الرمال والأحجار التي تحفل بها شوارع منطقتنا الجديدة غير المُمَهَّدة. لا أدري لماذا خرج قلبي إليه وفكرت: ها هو رجل وصل إلى منتصف العُمر ويبدو أنه لم يصل في الحياة إلى شيء. وصل إلى منتصف العمر وتخطّاه وهو غير قادر أن يرتدي حذاءًا محترماً. بدأ قلبي يتحرك داخلي إذ بدأت أن أشعر به وأضع نفسي مكانه، وأقارن بينه وبين من هم في مثل عُمره من أبناء الطبقة المتوسطة-العُليا الذين يأتون إلى عيادتي ويدفعون مبالغً رُبما لا يكسبها هذا الرجل في أسابيع لكي يتكلموا عن إحباطهم وهم يَمُرُّون في «أزمة منتصف العمر» وكيف يشعرون أنهم لم ينجزوا الكثير في حياتهم. بدأت الأسئلة تتزاحم في عقلي: إلى أين هذا الرجل ذاهب؟ تُرى كم من النقود في جيبه الآن؟ تُرى هل تناول فطوره؟ وماذا تناوَل؟ أليس من الممكن أن هذا الرجل يُحب الآن أن يتناول كوباً جيداً من الشاي على إحدى المقاهي أو يأكل شيئاً لذيذاً لكنه رُبّما يَحسب الجنيهات القليلة التي في جيبه الرَث فيتراجع عن الفكرة. ما هي الأفكار التي سوف ترد إلى ذهنه عن حياته وماضيه ومستقبله وهو

5 Brennan Manning, *The Ragamuffin Gospel*, 11.

> العطاء الصِحّي هو العطاء فقط لمن يحتاج وبطريقة لا تضُرُّهُ، وهو عطاء من يستطيع أيضاً أن يطلُب وأن يأخذ عندما يحتاج.

قد وصل إلى هذه السن ولا يستطيع أن يشرب كوباً من الشاي على مقهى بلدي متواضع؟ فَكَّرت: لماذا لا أقترب منه وأعطيه عشرة جنيهات مثلاً لكي يستمتع بما لا يسمح لنفسه بالاستمتاع به؟ لكنني كُنتُ قد قُدتُ السيارة بعيداً، واختفى هو بين الأزقة. قُلت لنفسي: في المرة القادمة عندما أرى مثل هذا الرجل، سوف أفعل معه ما أشعر به مباشرةً. ثم قُلت: لماذا ليس الآن؟ خيرُ البرِّ عاجله. فقُدتُ السيارة في الاتجاه الذي توقعت أن أجده فيه، فوجدته قد ذهب إلى إحدى العمائر الجديدة تحت الإنشاء يتحدث رُبما مع مالكها الذي بدا أنه يطلب منه عملاً يدوياً. اقتربت منه وأخرجت النقود وناديت عليه وابتسمت وأنا أمد يدي بالنقود قائلاً: «مُمكن أعزمك على كوباية شاي؟». بالطبع امتلأت نظراته بالتعجب والخوف والحذر، فهو أيضاً من سُكان المدينة الذين يفترضون أن أحداً لا يقترب من الآخر إلا إذا كان يريد شيئاً. إن لم يكن ماديًا فليكن جنسياً، أوأي شيء إلاّ أن يعطيه شيئاً دون مقابل، خاصةً وهو لم يطلب أو يستَعطِ. هذه مرة من المرات التي استجاب فيها عقلي الواعي لنبضات المحبة الآتية من الطبيعة الجديدة. لكن في مرات أخرى يحدث العكس تماماً فيستجيب عقلي وتستجيب مشاعري لشرارات الغضب والكراهية الآتية من ذاتي المزيفة الأنانية التي تريد أن تأخذ لا أن تعطي، وتُثبِت نفسها أكثر من أن تتنازل، وتحمي مكتسباتها بدلاً من أن تُضحي. إننا لكي نستجيب للمُبادرات التي تصنعها المحبة في قلوبنا نحتاج لأن نهزم خوفنا وخجلنا، وأيضاً أنانيتنا وكبريائنا. وهذا عنصرٌ هام جداً من «إماتة الذات» الذي تتميّز به الحياة الروحية الحقيقية.

المولود من الله أيضاً **يعطي** دون الكثير من الحسابات، وإذا قام بالحسابات فهي الحسابات التي هدفها أن تجعل عطاءه لا يتحول إلى ضررٍ لمن يستقبل العطاء، كأن يعيق شعوره بالمسئولية الشخصية، أو يجعله إنساناً اعتمادياً متواكلاً. رُبما يؤدي العطاء المَتَهَوِّر أيضاً إلى إحداث بعض الضرر في آخرين. كثيرًا ما رأيت أمثلة لخُدّام يمارسون عطاءًا مهووساً لمخدوميهم على حساب أسَر هؤلاء الخُدّام وكثيرًا ما تُشعِر زواجاتهم أيضاً بعدم الأمان خاصة عندما يكون هؤلاء المخدومين من النساء. كما أن كثيراً من الخادمات يهربن من علاقاتهن الزوجية غير المُشبعة إلى الخدمة المُبالغ فيها على حساب بيوتهنّ وأزواجهنّ، مما يزيد من سوء العلاقة الزوجية. هذا العطاء القهري المهووس رُبما يعود لأسباب مرضية عديدة، منها محاولة التأثير على الآخرين أو شراء حُبّهم أو حتى قبولهم، وذلك عندما لا يعتقد الإنسان أنه يُمكِن أن يُحَب بلا «ثَمَن» رُبما لضعف ثقته بنفسه أو حتى كراهيته لنفسه أو عدم ثقته بالآخرين وبقدرتهم على القبول غير المشروط، وذلك بسبب نشأته في أسرة مضطربة لا تمارس العطاء غير المشروط بل رُبما تمارس الكثير من الإساءات النفسية والجسدية. رُبما يكون السبب أيضاً أن من يعطي دون أن يستطيع أن يأخذ قد استمَدّ شعوره بالقيمة والاستحقاق من خلال عطاءه المُستمِر ويشعر أنه إذا طَلَبَ أو أَخَذ فسوف يفقد قيمته أو سبب وجوده في الحياة. هذا هو ما نُسَمّيه «الاعتمادية المتواطئة» Codependency أي أن يعتمد الإنسان نفسياً على اعتماد الآخرين عليه.[٦] العطاء الصِحّي إذاً هو العطاء فقط لمن يحتاج وبطريقة لا تضُرُّهُ، وهو أيضاً عطاء من يستطيع أن يطلُب وأن يأخذ عندما يحتاج.[٧] مغبوطٌ هو العطاء «أكثر» من الأخذ، لكن ليس مغبوطاً أبداً العطاء «بدون» أخذ مُطلقًا.

---

٦ المزيد عن ديناميات الاعتمادية والعلاقات الصحيحة يُمكن العودة لكتاب *صحة العلاقات* و أيضاً كتاب *العلاقات* (سلسلة ١٨٠ درجة) للكاتب.

٧ الرسالة الثانية لأهل كورنثوس ٨: ١٢- ١٥

المولود من الله يستطيع بسهولة أكثر أن **يُضحي** ويُقدِّم مصلحة الآخر على مصلحته، إذا كان الآخر في أحد مواقف الخطر أو الاحتياج. إننا، بالرغم من النماذج الصارخة للعُنف والكراهية التي يحفل بها عالمنا، لازلنا نستطيع أيضاً أن نرى في الجنس البشري أمثلةً مُبهرةً للتضحية والإيثار في المواقف الخطيرة وهذا دليل على القانون الأخلاقي العام والذي يَدُل على صورة الله المطبوعة في أعماق ضمير الإنسان. في كتابه الكلاسيكي *المسيحية المُجَرَّدة* يكتب ك. س. لويس عن ذلك القانون الأخلاقي العام فيقول:

> في علمي أن بعض الناس يقولون أن فكرة قانون الطبيعة أو السلوك اللائق، تلك المعروفة عند جميع البشر، ليست سليمة. وذلك لأن الحضارات المختلفة والعصور المختلفة كانت لديها نُظُم أخلاقيَّة مختلفة. ولكن هذا غير صحيح. فلطالما وُجِدَت اختلافات بين أخلاقيات البشر، ولكنها لم تبلُغ حدَّ الاختلاف الكُلّي قَط. فإذا تكلَّف امرؤ مشقَّة المُقارنة بين التعاليم الأخلاقية مثلاً عند قدماء المصريين والبابليين والهندوسيين والصينيين واليونانيين والرومان، فإن ما يستوقفه حَقّاً هو مُشابهة هذه الأخلاقيات بعضها لبعض ولأخلاقياتنا نحن... فَكِّر في بلدٍ يُمتَدَح فيه الناس لفرارهم من ساحة المعركة، او يشعر المرء فيه بالفخر والخيلاء لخيانته جميع الذين عاملوه ألطَفَ مُعامَلة![٨]

هذا المفهوم الأخلاقي العام يقع الآن في صراع حقيقي مع الفلسفة البعد-حداثية التي تَحْتَجّ بأنه لا وجود لصواب مُطلق أو خطأ مُطلَق، وأن كل القرارات الأخلاقية هي نسبية ومُتَغيِّرة من شخص لآخر ومن موقف لآخر. وبالأضافة للمؤمنين بالفلسفة

٨ ك. س. لويس. *المسيحية المُجَرَّدة*. ترجمة سعيد ف. باز (عَمَّان: أوفير ٢٠٠٦) ص. ٢٣ .

البعد حداثية، يوجد أيضاً من يحتجّون مُعتَبِرين أن ما نُسَمّيه القانون الأخلاقي هو ببساطة نِتاج للضغوط التطوُّرية. وهذا الاعتراض الجديد نابع من المجال الجديد المعروف بعلم الأحياء الاجتماعي Sociobiology الذي يحاول أن يجد تفسيراً للسلوكيات المُضحية على أساس قيمتها التطوُّرية العُليا بحسب الانتقاء الداروينى حيث أن وازع التضحية من أجل الآخر، مثل تضحية رجل الإطفاء بنفسه لإنقاذ حياة طفل في بناية تحترق، ليس قانوناً أخلاقياً وضعه الخالق فينا، ولكنها نوازعَ وضعتها فينا الطبيعة عبر ملايين السنين من التجربة والخطأ لكون هذه النوازع تحافِظ على النوع البشري. لكننا في واقع الأمر أحياناً ما نَجد نوازعنا الأخلاقية تتعلق بأمور لا علاقة مُباشرة لها بالحفاظ على الحياة أو النوع، بل أننا في بعض الأحيان نجد ضمائرنا تتحرك داخلنا لإنقاذ حيوان من الموت، وليس فقط الحيوانات الأليفة التي تفيدنا وتُسعِدَنا فالأخت جوان تشيتيستر وهي راهبة بنيديكتينية تحكي عن تلك القصة الصوفيّة عن سيدة مُسِنّة هَمَّت بإنقاذ عقرباً من الغرق في مجرى النهر، وبمُجَرَّد أن لَمَسَته لكي تُنقِذَه، قام بلدغها، فتراجعت ثم عادت تحاول إنقاذه مرة تلو المرة وفي كل مرة كان يلدغها. وعندما شاهد عابرٌ هذا المشهد انتهرها مُعتَبِراً إياها حمقاء ردت عليه قائلة: «إذا كان العقرب لا يستطيع أن يُنكِر طبيعته أن يلدغ، كيف يُمكنني أنا أن أُنكِرَ طبيعتي أن أُنقِذَه؟»[9] صَحيحٌ أن كثيرًا من سلوكياتنا مدفوعٌ بغريزة البقاء والحفاظ على النوع والتَطَوُّر. لكننا نستطيع أيضاً أن نلمح في الإنسان على وجه العموم بقايا من التكليف الأخلاقي الإلهي الذي وضعه الله فيه أن يكون مسؤولاً عن الخليقة وليس فقط عن جنسه ونوعه. إننا نُقابل حتى الآن نُدرةً من الأفراد الذين يملكون قدرةً سريةً وغريبة

9 Francis S. Collins, *The Language of God, A Scientist Presents Evidence for Belief*, (N.Y.: Free Press, 2006) p. 27.

على ترويض الوحوش. إن هذه القدرة نَمَت وازدهرت تماماً لدى إنسان الفردوس.. فالإنسان قد خُلِقَ ليكون كاهن، ورُبما مسيح الحيوانات.[١٠] هذا الميل للخروج خارج النفس للتضحية من أجل الآخرين هو جزء من الطبيعة الأخلاقية الفطرية للإنسان. أما الخلاص والولادة الجديدة، والحياة الروحانية المتأمِّلة فهما يُعيدان إحياء هذه الصورة الإلهية، وليس ذلك فقط بل يأخذانها إلى نقلة تطوُّرية روحية أبعد.[١١]

من يميل للغفران فهذا اختبار الحامض النووي الحاسم الذي يُثبت انتماءه لأبيه السماوي.

أما **الغفران** فهو الموقف الأكثر دلالة على اكتساب الطبيعة الجديدة. فإن كان الرسول يوحنا يقول أن من يُحِب فقد وُلِدَ من الله، فالغفران هو الدليل الأكيد على وجود هذه المحبة غير المشروطة (آجابى). الغفران هو تقديم المحبة (أي التخلي عن الكراهية والرغبة في الانتقام وفي ضرر الآخر) ليس فقط لمن لا يستحق، وليس فقط من ارتكب خطأً عاماً، ولكن البرهان الحقيقي للمحبة هو أن تقدم الغفران لمن قد ارتكب خطأ في حقك أنت. رُبما بشكل طبيعي يُمارِس الإنسان المحبة مع شخص غير لطيف لكنه غير مُخطئ، أو يمارسها تجاه من ارتكب خطأً لكن ليس في حَقِّهِ هو. أما من يقبل ويسامح من ارتكب خطأً في حَقِّهِ هو فهُذا هو اختبار الحامض النووي الحاسم الذي يُثبت إنتمائة لأبيه السماوي. قد يكون الخطأُ شديداً وأكبر مما لدينا من محبة غير مشروطة تُمَكِّنّا من الغفران، لكن عندما يكون الخطأ بسيطاً ولا نغفر، فهذا يكشف الافتقار التام لهذا النوع من المَحَبّة، في ذلك ينطَبِقُ علينا وصف الرسول

---

١٠ ك. س. لويس *قضية الألم والإنسان*. *The Problem of Pain* ترجمة نادين عطار (القاهرة: لوجوس. ٢٠٠١) ص. ٨١.

١١ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥: ٤٧.

يوحنا: «مَّن لا يُحِب (بمعنى أنه لا يمارس هذا النوع من المحبة والغفران بأي قدر) فهو لم يعرف الله، لأن الله محبة».[١٢] لهذا السَبَب غَضِبَ السَيِّد على عبده غير المُسامِح وسَلَّمَه للمُعذبين حتى يُوفي كل ما كان له عليه، وذلك لأنه لم يستقبل الغفران الذي قَدَّمَه له السيد استقبالاً كان من شأنه أن يُغير من طبيعته ويجعله قادراً على تقديم هذا النوع من المحبة الغافرة ولو بقدر ضئيل يسمح له بأن يغفر للمدين له بمئة دينار فقط، بل ظلت طبيعته كما هي خالية من المحبة، فلم يُرِد أن يغفر ديناً بسيطاً خاصةً بعد أن غَفَر له السيد دَينَهُ الكبير.[١٣]

كل من يُحِب؟

ماذا إذاً عَن الإنسان الذي تكشف سلوكياته عن وجود هذا النوع من المحبة في قلبه، لكنه لا يؤمن بالعقائد المسيحية؟ هل مثل هذا قد «وُلِدَ من الله»؟ أَتَصَوّر وقد رأيت بنفسي في بعض المَرّات، أن الإنسان يمكن أن يكون مولوداً من الله وليس مسيحياً بالمعنى العقائدي. هذا الأمر أشار إليه الرسول بولس أكثر من مرة متكلماً عن يونانيين كانوا يعبدون الإله الحقيقي وهم يجهلونه (أي أنهم مؤمنون غير واعين) Unconscious believersوذلك يعني أنه من الممكن أن يعبد الإنسان الإله الحيّ ويؤمن بالمسيح قلبياً وعملياً دون أن يؤمن بعقائد المسيحيين، وهذا إما لأسباب متعلقة به هو كالثقافة التي وُلِدَ فيها والتي من المُمكن أن تمنعه بسبب أفكار مُتأصِّلة عن المسيحية والمسيحيين، وإما لأسباب متعلقة بالمسيحيين الذين يقولون بألسنتهم أنهم مسيحيون ولكنهم لا يُظهرون هذه الطبيعة الجديدة في حياتهم. هذا يذكرنا بمقولة غاندي الشهيرة: «لولا المسيحيين لصِرتُ مسيحياً.»

---

١٢ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٨ (ترجمة فان دايك- بستاني)

١٣ إنجيل متى ١٨: ٢١- ٣٥

هذا بالإضافة إلى أسباب متعلقة بعدم شرح هذه العقائد بالشكل المفهوم، فهناك على سبيل المثال من يتصورون أن المسيحيين يعبدون إنساناً أو يعبدون ثلاثة آلهة وهذا يمنعهم من الإيمان العقلي العقائدي بالمسيحية.

من يعيش المحبة وينمو فيها يوماً بعد يوم، فيُمكننا أن نعتقد أنه في الأغلب قد وُلِدَ من الله ويعرف الله. ربما يكون في دينٍ لا يضع قيمة عُليا للمحبة، وبالذات المحبة غير المشروطة (أجابي)، بل وينسب تاريخ هذا الدين لقادته أحداثاً وأعمالاً وحشية لا يُمكن تفسيرها من منطلق الرحمة والمحبة أبداً. لكن بالرغم من كل ذلك، فإن ذلك الإنسان المختلف يعيش المحبة ويؤمن بها حتى وإن اتهمه بعض أبناء دينه بالكفر والفسوق لأنه يُحِب الذين من المفترض أن يكرههم. ربما لكي يقنع عقله ومعتقداته الدفينة، يقول أن ما يؤمن به هو«الدين الحقيقي»، وعندما يصادف نصوصاً كثيرة لا تؤيد ذلك، فهو يتجاهلها أو يُعيد تفسيرها ويلويها خارج سياقها لكي توافق «دين المحبة» الذي يؤمن به في قلبه. يكتب ابن عربي في قصيدته «ألا يا حمامات الأركان»:

لقد صار قلبي قابلاً كُلّ صورة   فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيت لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ   وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحُب أنّى تَوَجَّهَت   ركائبه، فالحُب ديني وإيماني

ليس بالضرورة أن يعني ما يقوله ابن عربي أن كل هذه الأشياء تتساوى في قُربها وبعدها عن الحق، أو أنه يوافق على معتقدات الجميع أو أنه لا يوجد حقٌ أو باطل في هذه الحياة، وإنما يقصد أنه قد أصبح يُحب ويقبل الجميع حتى وإن لم يوافق على ما يعتقدونه.

من هو إذاً المسيحي الحقيقي؟ وهذا سؤال شبيه بسؤال بولس لليهود «من هو اليهوديّ الحقيقيّ؟» ومن هو اليوناني؟ في ذلك الوقت كان اليهود يعتبرون اليونانيين كُفّاراً وكلاباً لأنهم وثنيون. على هذه الخلفية كان بولس الرسول يحتَجُّ قائلاً أن رُبَّ يهوديٌ في اللحم «الختان» ليس يهودياً مطلقاً، ورُبّ يونانيٌ مختونٌ في قلبه وغير مختون في جسده، هو اليهودي الحقيقي. وقد كان بالفعل هناك يونانيون كثيرون هكذا، مثل الشاعر الذي اقتبس منه بولس عبارته: «لأننا به (أي بالله) نحيا ونتحرك ونوجد.» ويخبرنا التاريخ عن فلاسفة يونانيين آمنوا بفطرتهم بالله كما تُعلِّم اليهودية عن الإله الواحد غير المنظور خالق السماء والأرض، مثل سقراط (الذي أعدمه اليونانيون الوثنيون باعتباره كافرًا عن الإيمان بآلهتهم ويفتن الشباب اليونانيين الوثنيين الأتقياء عن دينهم ودين آبائهم)، وغيرهم. وهؤلاء لم يكونوا أبداً «يهوداً» بالمعنى الديني، وبالطبع لم يكونوا مسيحيين لأن المسيح لم يكن قد جاء بعد.

عِندما يقول يسوع أنه هو الطريق والحَقّ والحياة[١٤]، فهو هُنا يشهد أنه هو بالفعل المسيح الكَونيّ The Cosmic Christ[15]، وهو «اللوجوس» أي عقل الله الذي صار بشراً وحَلّ بيننا. إنه هو بهاء مجد الله ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته.[١٦] هذا المسيح *//الكوني* هو المكتوب عنه أنه الموجود مُنذ الأزل قبل أن يصير بيننا في يسوع وهو «الكائن قبل ابراهيم»[١٧] وهو الذي «ينير كل إنسان».[١٨]

---

١٤ إنجيل يوحنا ١٤: ٦

15 Dallas Willard, *Knowing Christ today* (San Francisco: Harper Collins E. books, 2009) Locations 2735 -2741.

١٦ الرسالة إلى العبرانيين ١: ٣

١٧ إنجيل يوحنا ٨: ٥٨

١٨ إنجيل يوحنا ١: ٩

وهو «مُخَلِّص جميع الناس ولا سيَّما المؤمنين».[١٩] المسيح بهذا المفهوم هو وحده الطريق إلى الله، وهو الذي يعمل روح الله للشهادة عنه في *قلوب* كل من يريدون الحق ويبحثون عنه، حتى وإن كان هذا غير واضحٍ في *عقولهم*، لأسباب ذكرناها سابقاً. إن روح الله يعمل في كل قلبٍ ينفتح له ويتجاوب مع فطرته وصورة الله المطبوعة فيه والتي سِمَتَها المميزة هي المحبة. وعندما يعمل روح الله فإنه يُغيِّر ويلد الإنسان ولادة جديدة، رُبما تصل إلى تغيير العقل والعقائد، وربما تظل فقط على مستوى القلب الذي يظهر في الميل الفطري للمحبة غير المشروطة، والخروج من النفس لِلّه والآخرين.

يكتب الشاعر الصوفي الإسلامي الشهير أبو جلال الرومي في قصيدته *الثلج الذائب*:

إن «ها أنا معكم كُلَّ الأيام» تعني أنك عندما تبحث عن الله،

فالله في عينيك الباحثتين، وفي فكرة البحث عينِها،

أقربُ إليكَ من نَفسِكَ وكل ما قد حَدَث لك.

لا حاجة بك للذهاب للخارج لكي تجده

كُن ثلجاً ذائباً. واغسل نفسَكَ من نَفسِكَ.[٢٠]

يؤمن المسيحيون أن المسيح *التاريخي*، أي يسوع المسيح الناصريّ الذي وُلِدَ

---

١٩ رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ٤: ١٠

20 Coleman Barks, *The Essentials of Rumi* (New York: Harper Collins, 1995-2010), 13.

من عذراء وعاش وعَلَّم وصنع المعجزات وتألم وصُلِبَ على عهد بيلاطس البنطي، وقُبِر وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما تمّ التنبؤ به في كُتُب العهد القديم، هو نفسه المسيح الكونيّ، كلمة الله وعقله. هذا الإيمان هو الذي يُدخِل الإنسان إلى ملكوت الله هُنا والآن وإلى الأبد. هذا هو «الباب» و«الطريق» المؤدي للحياة. المسيح التاريخي هو الباب للمسيح الكوني، ولكن الله في رحمته قد فَتَح «نوافذَ» منها يطل البعض على هذا الطريق، والبعض يقفزون من هذه النوافذ ويصِلون بصورةٍ أو بأخرى، بوعيٍ أو بدون وعي، إلى الطريق. وهذا يظهر من خلال سِمة الطريق البادية بوضوح وبإصرار على نوعية حياتهم، وهي المحبة (أجابي).

هؤلاء الذين يقول عنهم بولس الرسول في الأصحاح الثاني من رسالته إلى أهل رومية أنهم «بصبرٍ في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبدية... مجد وكرامة لكل من يفعل الصلاح: اليهودي أولاً ثم اليوناني لأن ليس عند الله مُحاباة.»[٢١] ويقول أيضاً عنهم أنهم: «الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم، شاهداً أيضاً ضميرُهُم وأفكارهم فيما بينهم مشتكيةً أو محتجة».[٢٢] بالطبع هؤلاء أقل كثيراً من الذين يجدون الباب ويدخلون منه، لكن ليس لنا أن نحكم مَن هو الذي دخل ومن الذي لم يدخل. مؤخراً سُئِلَ المُبشر الشهير بيللي جراهام إن كان يؤمن إن كانت السماء سوف تكون مغلقة أمام الأتقياء من اليهود أو المسلمين أو البوذيين أو الهندوس، أو العلمانيين، رد بحكمةٍ شديدة قائلاً: «إن هذه قرارات لا يتخذها إلا الربّ نفسه. وإنه لمن الحماقة بالنسبة لي أن أقول أو أُخَمِّن من سيكون في السماء ومن سوف لا يكون. أنا لا أريد أن أقدم أي افتراضات هنا، لكنني فقط أؤمن أن محبة الله مُطلقة. لقد قال أنه قد قدَّم ابنه لكل العالم، وأنا أعتقد أنه يُحِبُّ

٢١ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٢: ٧، ١٠

٢٢ رومية ٢: ٥- ١٠

كل إنسان مهما كان العنوان الموضوع عليه.»[٢٣]

هل يعني هذا عدم أهمية مخاطبة العقل؟ وعدم أهمية الكلام عن الباب وعن الطريق والإشارة إليه بوضوح أمام كل البشر؟ على الإطلاق. وذلك لأن الذين يصِلون للطريق بقلوبهم وفطرتهم بالرغم من عقولهم المليئة بمعتقدات موروثة هم قِلّة نادرة، كما أن دين العقل والثقافة والموروث كثيراً ما يخنق دين القلب مثلما تخنق الحشائش الشجيرات المثمرة. علينا إذاً أن نُخاطب العقل سواء اقتنع أم لم يقتنع. وبعد ذلك، وقبل ذلك، علينا دائماً أن نخاطب قلوب كل البشر ونحاول أن نشفيها بالحب فكُلَّما شُفي القلب كلما يعود إلى فطرته، أي ذاته الحقيقية المخلوقة على صورة الله والمفطورة على المحبة، والباحثة دون أن تدري، عن صورة الله في المسيح، بحث جنين البذرة عن الرطوبة لكي تحيا وتنمو، حتى وإن لم تَعِ وتُدرِك أنها به تحيا وتنمو.

٢٣ مجلة نيوزويك عدد ١٤ أغسطس سنة ٢٠٠٦

«الثبات في محبة المسيح يعني الاستمرار في التصديق، لحظة بلحظة أنك محبوب»

جون بايبر

«الإيمان هو التصديق المُسَبَّق لما يصير له معنى، فقط بالنظر للخلف»

فيليب يانسي

«وهكذا عرفنا وصَدَّقنا المحبة التي يُحِبُّنا إياها الله.

الله محبة

ومن يثبت في المحبة، يثبت في الله، ويثبت الله فيه»

الأصحاح الرابع من رسالة يوحنا الرسول الأولى العدد ١٦

«كما أحبني الآب أحببتكم أنا أيضاً، فاثبتوا في مَحَبَّتي. إن أعطتم وصاياي تثبتون في محبتي.

وهذه هي وصيتي لكم: أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا»

الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا الأعداد ٩، ١٠، ١٢

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

الجزء الثاني

الثبات في المَحَبَّة

ليس فقط في الأصحاح الرابع (الذي هو موضوع هذا الكتاب)، وإنما تمتلئ رسالة يوحنا الرسول الأولى كُلَّها بأنواع مُتَعَدِّدة من العبارات التي يستخدمها الرسول لحَثّ سامعيه أن يثبتوا في محبة المسيح. وهو في ذلك يواصل التأكيد على وصية المسيح التي أوصى بها تلاميذه في عظته الختامية الطويلة التي تشغل الأصحاحات من الثالث عشر للسادس عشر من إنجيل يوحنا. في هذه العظة تحدث يسوع كثيراً عن الثبات في مَحَبَّتِه. بالتحديد في الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا، شَبَّهَ يسوع نَفسَهُ بالكرمة الحقيقية وهو تشبيهٌ مألوف لدى الأذن اليهودية حيث شبه الكتاب المقدس شعب إسرائيل في أكثر من موضع بالكرمة التي نقلها الرب من مصر وزرعها في أرض جديدة[1] لكي تُثمر ثمراً جيداً لكنها قد أثمرت ثمراً رديئاً. كان الهدف الأسمى بالنسبة للإنسان اليهودي هو أن يثبت في الشعب، وكانت العقوبة الأكبر التي تحكم بها الشريعة على الفرد هي أن «تُقطَع النفس من إسرائيل.» يسوع هنا يقول أنه هو الكرمة الحقيقية، وأن الغرض الأسمى لوجود هذا الشعب هو أنه الشعب الذي منه سوف يأتي المسيح. بل، وفي مكان آخر من إنجيل يوحنا، يقوم يسوع بزعزعة تَمَسُّك اليهود بحرفية الكُتُب حتى كادوا

---

١ مزمور ٨٠: ٨ و إشعياء ٥: ٧

يعبدونها من دون الله[٢] غير عالمين أن القيمة الحقيقية للكُتب المقدسة هي أنها تشهد للمسيح. فإن كانت الكُتُب هي كلام الله، فالمسيح هو كلمة الله الحقيقية، وإن كان شعب إسرائيل هو كرمة الرَبّ، فالمسيح هو الكرمة الحقيقية. هذا ما أراد يسوع (وبالذات كما نراه في إنجيل يوحنا) أن يقوله.

لذلك يردد يسوع وصية الثبات فيه أكثر من مرة: «اثبتوا فيّ وأنا فيكم.» «الذي يثبت فيّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير.» «إن ثَبَتُّم فيَّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم.» وعندما أراد أن يشرح أكثر كيف يكون الثبات فيه، قال: «اثبتوا في محبتي.» الثبات في المسيح هو في واقع الأمر الثبات في محبة المسيح غير المشروطة. ليس على الغصن أن يفعل شيئاً لكي يستحق عُصارة المحبة التي تقدمها الكرمة. كل ما عليه أن يظل في مكانه لكي تسري فيه هذه العُصارة مجاناً. ليس عليه أن يقدم ثمناً أو يفعل شيئاً به يستحق هذه المحبة. المحبة مجانية وغير مشروطة ومُقَدَّمة للجميع، لكن الذي يثبت فيها هو الذي يُصَدِّقها ويثبت ويُثابر في هذا التصديق وينتظر، فيتغَيَّر.

ثم يقول: «إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي» ولكيلا تذهب أذهاننا بعيداً للبحث عن هذه «الوصايا» لكي نثبت في المحبة، يعاجلنا يسوع في العدد الثاني عشر بأن يقول أن وصاياه ليست سوى وصية واحدة: «هذه هي وصيتي: أن تحبوا

---

٢ يوحنا ٥: ٣٩ . في هذا الموضع يقول يسوع لليهود: «فتشوا الكُتُب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية» وللأسف هذا يصف حال كثير من «المسيحيين» الآن الذين يتمسكون بحرفية النصوص وكأن فيها نفسها الخلاص والحياة الأبدية. فنرى كثيرين يحفظون النصوص عن ظهر قلب. أما حياتهم فغير مُتَغَيِّرة لأنهم نسوا أن الإيمان بالمسيح والثبات فيه والنمو إلى صورته هو هدف كل الكُتُب وهدف كل أعمال وأقوال الله. بل إن كثيراً ما يؤدي ذلك التَمَسُّك الحرفي بالنصوص إلى فقدان العلاقة بالمسيح وضعف محبة الآخر الذي لا يشاركهم فهمهم وتفسيرهم. مع أن محبة الآخر المختلف هي الرافد الأساسي للثبات في محبة المسيح والتغيير لصورته الذي هو القصد من مجيء المسيح أصلاً.

بعضكم بعضاً كما أحببتكم.» ليس على الغصن لكي يثبت في الكرمة إلا أن يكون قناةً مفتوحةً تستقبل حُب الله المجاني وتقدمه. مجاناً يأخذ ومجاناً يعطي. العبد الذي غُفرَ له الدَين بسبب محبة سيده الفائقة، ليس عليه إلا أن يقدم ما قد أخذه من غفران للآخرين من حوله، وهذا هو الدليل الوحيد هو أنه بالفعل استقبل المحبة والغفران وفَهِمَهُما وغَيَّرا من طبيعته لتصبح مثل طبيعة سيده الذي يُحب ويغفر.[٣]

عندما يثبت الغصن في الكرمة، فليس أدلّ على ذلك من أنه مع الوقت يتغير ويصبح جزءاً منها. يأخذ لونها الأخضر ويحمل ثمارها اللذيذة. هذا يردده يوحنا في رسالته الأولى عندما يقول أن من يحب فقد ولد من الله (أي صار غصناً من الكرمة) ويعرف الله (أي ثابتٌ في الكرمة)، ومن لا يُحب لم يعرف الله لأن الله محبة. وفي العدد الحادي عشر يؤكد: «أيها الأحباء إن كان الله قد أحبنا هكذا ينبغي لنا أيضاً أن يحب بعضنا بعضاً.»[٤] ثم يقدم يوحنا الرسول عبارة مُدهشة لا تُفهَم جيداً إلا إذا وُضِعت بالتوازي مع عبارة أخرى كتبها أيضاً في مستهل إنجيله، ففي العدد الثاني عشر من الأصحاح الرابع من رسالته الأولى يكتب: «الله لم ينظره أحد قط. إن أحبَّ بعضُنا بعضاً فالله يثبت فينا، ومحبته قد تكملت فينا» عندما نضع هذا العدد بالتوازي مع العدد الثامن عشر من الأصحاح الأول من الإنجيل بحسب يوحنا: «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خَبَّر.» نكتشف كيف أن محبتنا لبعضنا البعض تُخَبّر الخليقة كلها عن حقيقة التغيير الذي حدث فينا وبالتالي حقيقة عمل المسيح وكلام المسيح، وكأن

---

٣ إنجيل متى ١٨: ٢١- ٣٥

٤ وفي رسالته الثانية يؤكد الرسول يوحنا على أن هذه هي «الوصية.» فيكتب في الأصحاح الأول منها: «والآن أطلب منك يا كيرية. لا كأني أطلب وصيةً جديدة. بل التي كانت عندنا من البدء: أن يُحب بعضنا بعضاً... هذه هي الوصية كما سمعتم من البدء أن تسلكوا فيها.»

بهذا يتجسد المسيح ثانيةً فينا.[٥] هذا نفسه قاله يسوع في الأصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مُكَمَّلين إلى واحد ليؤمن العالم أنك أرسلتني.» كما كان الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب قد خبر عن الآب، و ظهرت حقيقة محبة الآب في يسوع، فإن ظهور المحبة في تلاميذ يسوع تُظهر حقيقة حلول المسيح فيهم. وكما أرسل الآب الابن مُعبراً عن طبيعته، يرسل الابن الكنيسة معبرة عن طبيعته، وكما غرس الكرام الكرمة ليظهر بها محبته، تُنبِتُ الكرمة أغصاناً تحمل نفس ثمار المحبة.

ويُقدم الرسول يوحنا دُعامتين أساسيتين للثبات في محبة المسيح، وهما **الإيمان به، والمحبة للإخوة.** وهو يُقرر هاتين الدعامتين ببساطة واقتضاب في نهاية الأصحاح الثالث من رسالته الأولى: «وهذه هي وصيته: أن نؤمن باسم ابن ابنه يسوع المسيح، ونُحِب بعضنا بعضاً كما أعطانا وصية.» هاتان الدُعامتان هما دعامتي الحياة في المسيح التي يقدمها كل كُتّاب العهد الجديد،[٦] وسوف تكونان موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب. ففي الفصل الثالث سوف نتأمل معنى الإيمان وما هي حقيقة وطبيعة ذلك الإيمان الذي يُمَكّنا من الثبات في محبة المسيح وكيفية ممارسة هذا الإيمان. وفي الفصل الرابع سوف نتناول محبة الإخوة. كيف تكون وكيف تؤدي للثبات في محبة المسيح.

---

٥ رسالة غلاطية ٤: ١٩

٦ كورنثوس الأولى ١٣: ١٣ . رسالة غلاطية ٥: ٦ . ورسالة بطرس الرسول الثانية ١: ٥- ٧. وغيرها كثير.

الفصل الثالث

أن نؤمن

ليس الإيمان عقيدة بل علاقة

كما أن الكرمة الحقيقية ليست «الأمّة اليهودية» بل المسيح، وكما أن المسيحية ليست «كتاباً» بل شخصاً، فإن الإيمان بالمسيح ليس «عقيدة» بل علاقة.

كما أن الكرمة الحقيقية ليست هي «الأمّة اليهودية» بل المسيح،[1] وكما أن المسيحية ليست «كتاباً» بل شخصاً، فإن الإيمان بالمسيح ليس «عقيدة» بل علاقة حَية مع المسيح. هذه العلاقة تأخذ صوراً مُتعددة، سنحاول أن نُلخصها في أربعة مبادئ أساسية: الاعتراف بصدق المسيح، والثقة في المسيح، وتصديق محبة المسيح، وطاعة وصية المسيح. أما الاعتراف بصِدق المسيح فهو الإيمان بأنه قد قام كما قال، وأما الثقة في المسيح، فهي وضع الحياة بأكلمها بين يديه مهما كانت النتائج، وأما طاعة وصية المسيح فهي أن نُحب بعضنا بعضاً مَحبّة غير مشروطة كما أَحَبَّنا هو.

---

١ نفس الشيء بالنسبة للعبد المتألم الذي يكتب عنه إشعياء بروح النبوة في الأصحاح الثالث والخمسين. كان اليهود ولا يزالوا يعتقدون أن هذا العبد المتألم يشير فقط إلى الأمة اليهودية بشكل عام. جاء العهد الجديد ليشرح كيف أن هذا العبد المتألم بالفعل يشير إلى الأمة اليهودية. لكنه بشكل أكثر دقة يشير إلى المسيح المتألم الذي هو القصد من الأمة اليهودية أصلاً.

الاعتراف بصدق المسيح

في العدد الخامس عشر من الأصحاح الرابع من رسالة يوحنا الرسول الأولى (موضوع هذا الكتاب) يقدم الرسول هذا التقرير الصارِم: «من اعترف أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله.» لم يُشِر المسيح إلى نفسه في الأناجيل أنه «ابن الله» بل كان يستخدم لقباً آخر هو: «ابن الإنسان»، لكنه كان دائماً ما يشير إلى الله أنه أبوه. كان اليهود يشيرون إلى الله بوصفه أبوهم كشعب[٢]، أما يسوع فكان يتكلم عن أبوة الله بشكل شخصي، بل كان يستخدم اللفظ الذي كان يستخدمه الأطفال في نداء آبائهم «آبا» بالدارجة الآرامية[٣] (وهي نفس اللفظة بالعامية الريفية المصرية) مما دفع اليهود أن يحتجوا بشدة على طريقته في الكلام عن الله لدرجة أنهم أرادوا أن يقتلوه لذلك السبب.[٤]

وليس ذلك فقط، فإنجيل يوحنا بالذات يحفل بعبارات قالها يسوع عن نفسه، يصعب قبولها وتصديقها. فتارة يقول: «أنا هو الطريق والحق والحياة.»[٥] وتارة يقول: «أنا هو خبز الحياة.» وتارة ثالثة «أنا هو القيامة والحياة من آمنَ بي ولو مات فسيحيا.»[٦] وتارة أخرى يقول: «الحق الحق أقولُ لكم: إن كان أحدٌ يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد.»[٧] ثم، وكأن لم يَكفِه ما قد قال سابقاً، فيقول: «الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» و «أنا والآب واحد.»[٨] لذلك اعتبره

---

٢ إشعياء ٦٣: ١٦. ويوحنا ٨: ٤١

٣ في اللهجة الدارجة الآرامية كان يشار للأب «أبا» والأم «إمّا.»

٤ يوحنا ٥: ١٨

٥ يوحنا ١٤: ٦

٦ يوحنا ١١: ٢٥

٧ يوحنا ٨: ٥١

٨ يوحنا ١٠: ٣٠

كثيرون، وبالذات القادة الدينين اليهود، كافراً ومُهَرطقاً، واعتبره آخرون من أقرب الناس له، مُختلاً بل وحاولوا أن يمسكوه[٩] ولهم في ذلك مَنطِقَهم. فماذا عساك تقول عن شخصٍ يقول لك أنه هو الله؟!

ليس غريباً إذاً أن يجعل يسوع اليهودية والجليل كلها تقف على ساقٍ واحدة، ليس فقط لأنه يقول ما لم يقله أحد، لكن لأنه أيضاً كان يفعل ما لم يفعله أحد من قبل، فقد أقام الميت الذي صارت له أربعة أيام في القبر، وفتح عينيّ المولود أعمى. لذلك آمن به كثيرون وإن لم تستوعب عقولهم كلامه، وذلك بسبب ما كان يفعله من معجزات. ولعل أبلغ من عَبَّر عن منطِق المؤمنين بيسوع، ذلك الرجل أكمه (المولود أعمى) الذي قال لقادة اليهود: «إن في هذا عجباً! إنكم لستم تعلمون من أين هو، وقد فتح عينيَّ. ونعلم أن الله لا يسمع للخطاة. ولكن إن كان أحدٌ يتقى الله ويصنع مشيئته، فلهذا يسمع. منذ الدَّهر لم يُسمع أن أحداً فتح عينيّ مولودٍ أعمى (لأن هذه ليست معجزة شفاء بل خلق من عدم). لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً»[١٠] وكان هذا المنطق نفسه هو ما قاله يسوع لليهود عندما قال لهم «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه.»[١١]

لم يؤمن بيسوع أحد إلا بسبب ما كان يفعله، حتى تلاميذه الإثنا عشر لم يؤمنوا به لأنهم فهموا ما كان يقول، لكن لأنه قد أظهر مجده من خلال ما صنعه من معجزات.[١٢] وبالرغم من ذلك بعض من تلاميذه الذين كانوا يؤمنون به رجعوا إلى

---

٩ مرقس ٣: ٢١

١٠ يوحنا ٩: ٣٠-٣٣ (الترجمة العربية المُبَسَّطة)

١١ يوحنا ١٠: ٣٧-٣٨

١٢ يوحنا ٢: ١١

يكتب يوحنا الرسول أن ثباتنا في المسيح مبنيّ على أننا قد «عرفنا وصَدَّقنا المحبة التي لله فينا.»[٤٨] أحياناً يكون من الصعب علينا في عالم لا يعرف المحبة غير المشروطة ويجري فيه عروقه الكبرياء مجرى الدم، أن نُصدِّق أو نقبل أننا محبوبون ومقبولون كما نحن مهما كانت عيوبنا وتقصيراتنا وخطايانا. هذا يدفع اللاهوتي الألماني بول تيليك أن يقول إن الإيمان هو شجاعة أن تقبل القبول.[٤٩] تَخيّل مثلاً أنك تمشي في أحد شوارع العاصمة أمام فندق فخم وتفاجئ بخروج مجموعة من العاملين في الفندق ليدعونك لتناول عشاء فاخر مجاناً في هذا الفندق. كيف سيكون رد فعلك؟ في الأغلب سوف تُفاجئ لثوان ولا تفهم ماذا يقولون لأنه أمر غير مُتَوَقَّع مُطلقاً، ثم عندما تستوعب تتساءل مُتَشَكِّكاً خائفاً:

- لماذا؟

- لا لسبب. هكذا أراد صاحب الفندق

هذه الإجابة غالباً ما سوف تُزيد من خوفك.

- ولماذا يُريد صاحب الفُندُق هذا؟ ألعله يُريد أن يَبيعني شيئاً؟ هل يمتلك شركة سياحة تبيع أسابيع بنظام المشاركة في الوقت مثلاً؟

- لا

ربما تخاف أكثر وتبدأ في الشكّ في الطعام أو ما يُمكن أن يحدُث داخل الفُندق. رُبما أيضاً تشعر بالإهانة، فلماذا قد اختاروني أنا بالذات، هل أبدو مستحقاً للشفقة؟

٤٨ رسالة يوحنا الأولى ٤: ١٦

49 Paul Tillich, *The Shaking of the Foundations* (New York: Charles Scribner's Sons, 1948), 42.

أغلب الظن أنك سوف ترفض الدعوة، بل رُبما تُطلِق ساقيك للريح خوفاً من أن يختطفونك ويُدخلونك إلى الفُندُق عنوةٍ. أما إذا كُنتَ جائعاً ولم تذق الطعام مُنذُ أيام، فغالباً سوف يتفوق جوعك واحتياجك على شكوكك وكبرياءك فتدخل. فماذا يُمكن أن يفعلوه بك أكثر مما هو حادثٌ لك بالفعل؟ فإن لم تأكل سوف تموت على أي حال. في واقع الأمر ليس هذا مثلاً من اختراعي، بل هذا المثل نفسه قدمه يسوع لتلاميذه وسامعيه.[٥٠] هذا المثل يشير إلى أن قبول القبول ليس دائماً أمراً سهلاً بل يحتاج إلى قدر من الشجاعة كما يقول تيليك، بل يحتاج أيضاً إلى قدرٍ كبيرٍ من التواضع. لذلك يقول يسوع أيضاً أنه طوبى للمساكين والحزانى والمُحتاجين،[٥١] لأن احتياجهم يُسهِّل عليهم القبول، وأيضاً طوبى للأطفال الذين لم يعرفوا بعد الكبرياء.[٥٢] إن الكبرياء يزيد من شعورنا بالذنب والخزي وكراهية النفس عندما نُخطئ، وهذا بدوره يمنعنا من الاعتراف ويمنعنا أيضاً من تصديق القبول والغفران. يكتب برنان مانينج عن تصديق المحبة:

> إن اجترار الخزي والندم وكراهية النفس والإحساس المستمر بالذنب على الفشل في الماضي، سواء كان هذا الفشل حقيقياً أم مُتَخَيَّلاً، يكشف فقراً عميقاً في الثقة بمحبة الله. إن هذا يكشف كيف أننا لم نَقبَل القبول الذي يقدمه يسوع المسيح، وأننا قد رفضنا الفداء الكامل. إن الانشغال أكثر من اللازم بخطايانا الماضية وضعفاتنا الحالية وعيوب شخصياتنا يجعل مشاعرنا تتخثر بداخلنا بطريقة مُدَمِّرة للنفس وتحبسنا سجناءَ في

---

٥٠ لوقا ١٤: ١٥- ٢٤

٥١ متى ٥: ٣ ـ ١٢

٥٢ متى ١٨: ٣

قلعة الذات وتمنعنا من اختبار حضور الله الرحيم.[٥٣]

إننا نُسقِط على الله مشاعرنا تجاه أنفسنا ونظن أنه يشعر تجاهنا مثلما نشعر نحن تجاه أنفسنا، فإن كُنا نحتقر أنفسنا نظنه يحتقرنا، وإن كُنا نعتبر أنفسنا غير مستحقين للحُب، وذلك بسبب ما تعلمناه من أبوينا ومن عالم كامل فقير في الحب، نظن أنه يرانا كذلك. يكتب بليز باسكال إن «الله خلقنا على صورته، ونحن نَرُدّ له المجاملة.»[٥٤] أي أننا خلقنا إلهاً على صورتنا، أو للدقة، على صورة آباءنا وأمَّهاتنا. لكي ننمو في الثقة، علينا أن نفتح أنفسنا أمام الله كما نحن وهذا يحدث بأفضل طريقة من خلال الصلاة. إننا عندما نصلي فإن محبة الله الفيَّاضة تغمرنا وبالتدريج تُغَيِّرَنا. إننا عندما نفتح أنفسنا لنقبل حقيقتنا في عينيّ الله، فإن الروح القدس يفتح عيوننا لتلك الحقيقة ويخترق أستار الوهم لكي نكتشف كيف ينظر الله إلينا بعينَيّ الحُب.[٥٥]

طاعة وصية المسيح

المبدأ الرابع للثبات في المسيح هو طاعة وصية المسيح. والوصية كما أشرنا من قبل ليست شيئاً سوى تقديم هذه المحبة. المحبة مثل المال كُلما استثمرناه كلما زاد، أما كلما احتفظنا به لأنفسنا «تحت البلاطة» كُلما فَسَدَ بفعل السوس والصدأ، أوبفعل ارتفاع نسبة التضخم. الألف جنيه اليوم تصير قيمتها الشرائية السنة

53 Brennan Manning, *Ruthless Trust*, 15.

54 Brennan Manning, *Abba's Child, The Cry of the Heart for Intimate Belonging* (Colorado Springs: Navpress, 2002), 19.

55 Brennan Manning, *Ruthless Trust*, 16.

القادمة ثمانمئة جنيه فقط، أو رُبما أقل. ولا سبيل لزيادة قيمتها أو حتى بقاءها كما هي إلا باستثمارها. هذه قاعدة اقتصادية معروفة. المحبة أيضاً تزداد كلما استثمرناها في حياة الآخرين، وكأن وصية المسيح بتقديم المحبة للآخرين ليست أمراً بل هي أمرٌ ففي العطاء نأخذ.[٥٦]

ليست محبة الآخرين هي أن نُرضي الجميع دائماً على حساب الحق.[٥٧] وليست محبة الآخرين أن نجعل من أنفسنا مسؤولين عن الآخرين.[٥٨] كما أن محبة الآخرين لا تعني ألّا نختبر مشاعر الغضب من الآخرين أحياناً، فالمسيح اختبر الغضب من تلاميذه الذين أَحَبَّهم إلى المُنتهى.[٥٩] محبة الآخرين هي أن نُريد وأن نفعل دائماً أقصى ما نستطيع من أجل خير الآخرين، وهذا لن نستطيع أن نفعله إلا بالخروج من انحصارنا في أنفسنا لكي نراهم ونحاول أن نفهم ما يشعرون به من مشاعر وما يجتازونه من خبرات.[٦٠]

هذا يأخذنا للفصل القادم الذي سوف نتاول فيه محبة الإخوة، التي هي الدعامة الثانية من دعامات الثبات في محبة المسيح.

---

٥٦ لوقا ٦: ٣٨

٥٧ رسالة غلاطية ١: ١٠

٥٨ رسالة غلاطية ٦: ١- ٥

٥٩ إنجيل مرقس ٣: ٥

٦٠ أوسم وصفي *المحبة (١)* (القاهرة، ٢٠١٤)

الفصل الرابع

أن نُحِبّ

لا تكن كاذباً

شعرت أنني وجدتُ كنزاً عندما اكتشفت إذاعة الأغاني على موجات «إف إم» التي تبث على مدار الساعة الأغاني القديمة، أغاني الستينات والسبعينات التي كنت أستمع إليها في طفولتي. وأنا أستمع إلى هذه الإذاعة أثناء قيادتي للسيارة تتداعى مشاهد ومشاعر وذكريات الطفولة المرتبطة بكل كلمة وكل نوتة موسيقية في هذه الأغاني، حتى أنني أصبحت أخترع طُرقاً أطول للقيادة لأظل أستمع لهذه الإذاعة في السيّارة. مؤخراً فاجئتني أغنية نجاة الصغيرة التي تقول فيها: «ماهو لولا الحُب نعيش على إيه؟ ولّا نعيش ليه؟» لَمَست الأغنية وتراً وجودياً عميقاً. نعم. لولا المحبة لَما استطعنا أن نعيش، ولَما وجدنا هدفاً للحياة. المحبة هي هدف الحياة. بالطبع أسرَفَت الأغاني والأفلام العاطفية في قَصر الحُب على العلاقات الرومانسية الجنسية بين الرجل والمرأة. هذا النوع من الحُب أساسيّ في منظومة الحُب الكبيرة، لكن هناك غيره الكثير من أشكال وألوان المحبة التي تُشكل معنى الحياة. فبدون حُب الأسرة، وحُب الأصدقاء وحُب الوطن والناس

بدون حُب الأسرة، وحُب الأصدقاء وحُب الوطن، والناس الذين فيه، والبشر بشكلٍ عام لا يوجد أي معنى للوجود.

لذين فيه، والبشر بشكلٍ عام لا يوجد أي معنى للوجود. حتى حُب الحيوانات يبقي الإنسان على قيد الحياة، ففي إحدى دراسات الاكتئاب والانتحار، وُجِد أن لمصابين بالاكتئاب ممن لديهم كلب أو قطة يُقدمون على الانتحار بنسبة أقل ممن يعيشون بمفردهم تماماً. وكُلما زاد عُمق المحبة وامتدّ مداها، ليشمل حتى الأعداء، كُلما تحقق قصد الله من الخليقة، وكُلما ثبتنا في الله، وثبت الله فينا وتحقق ملكوته فينا وفيما بيننا.

في العدد التاسع من الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا يقول يسوع: «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا. اثبتوا في محبتي» ثم يُكمِل في العدد العاشر: «إن حَفِظتُم وصاياي تثبتون في مَحَبَّتي.» هو هنا يقول إن الثبات في المحبة يأتي بحفظ الوصايا. ربما لأول وهلة نظن أن الوصايا هنا هي مجموعة من القوانين والشرائع الخاصة بالسلوكيات المختلفة فيما يتعلق بالمال والعلاقات والجنس والكلام. أو مجموعة من الطقوس بما فيها من أصوام وصلوات وزكاة وصدقة. لكن قبل أن نستطرد في التفكير في هذه «الوصايا» يستدرك يسوع ويقول أن لديه وصية واحدة فقط تقوم بتلخيص كل الوصايا وتكثيفها في نقطة واحدة[1]: «هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ.» هذا يجعل يوحنا الرسول في رسالته يتجرأ ويقول: «إن قال أحدٌ أنه يُحب الله وأبغض أخاه، فهو كاذب. لأن من لا يُحب أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يُبصِرُه. ولنا هذه الوصية منه: أن من يُحِب الله يُحِب أخاه أيضاً.»[2]

---

١ رسالة رومية ١٣: ٩- ١٠

٢ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٢٠- ٢١

من خزان إلى ينبوع

عندما اقترب يسوع ليتكلم مع المرأة السامرية ليطلب منها أن يشرب، قَدَّمَ لها وعدَ الارتواء الحقيقي عندما قال لها: «لو كُنتِ تعلمين عطية الله ومن هو الذي يقول لك اعطيني لأشرب لطلبتِ أنت منه فأعطاك ماءًا حَيًّا.»[٣] لقد كانت هذه المرأة البائسة تبحث عن الارتواء في المكان الخطأ. كانت تبحث عن الأمان والحنان والقيمة والاحتواء في علاقات لم تستمر، فقد كان لها خمسة أزواج وتعيش الآن مع رجلٍ بدون زواج. ما هذا الماء الحَي؟ وكيف يختلف عن غيره من الماء؟ وكيف من يشرب من هذا الماء لا يعطش إلى الأبد؟ بالطبع كانت هذه هي التساؤلات التي دارت في عقل تلك المرأة عندما قال لها يسوع هذا الكلام، لكن الأهم هو أن هذا الماء ليس فقط يملأ جوف الإنسان ويُسَدِّد احتياجاته الجسدية والنفسية، لكنهُ ماءٌ يُغَيِّر الإنسان فيحوله من خزان يعطش ويُروَى، يفرَغ ويمتلئ ليَفرغ مرة أخرى، إلى ينبوع يخرج منه الماء إلى الخارج ليروي الآخرين. لقد وعد المسيح أن من يؤمن به، ليس فقط يَشرَب وإنما تجري من بطنه أنهار ماء حَيّ.[٤] كثيرون منّا مثل هذه المرأة، نأتي إلى الإيمان بيسوع متصورّين أننا قد وصلنا إلى «كنز علي بابا»، وتُصبِح كل إمكانيات الله تحت تصرفنا. هذا حقيقي وخاطئ في نفس الوقت. حقيقي لأن الله بالفعل مستعد لأن يضع كل إمكانياته تحت تصرفنا. وخاطئ لأنه لن يفعل ذلك إلا بعد أن يُغَيِّرنا. لن تكون إمكانيات الله تحت تصرفنا إلا بقدر ما نتغير إلى صورة المسيح. الله لن يضع إمكانيته تحت تصرفنا ونحن كما نحن أنانيون منحصرون في أنفسنا.

> الوعد الذي يقدمه المسيح لنا ليس فقط أن يروي عطشنا بل أن يغيرنا فنتحول من خزانات إلى ينابيع.

٣ يوحنا ٤

٤ يوحنا ٧: ٣٨

الوعد الأساسي الذي يقدمه المسيح لنا ليس فقط أن يروي عطشنا ويمدنا بتيار ماء مستمر ونحن لا نزال كحالنا خزانات. إن وعده هو أن يغيرنا فنتحول من خزانات إلى ينابيع. وعدم العطش إلى الأبد الذي يعد به، ليس لأنه سوف يملأ خزاناتنا كلما فرغت، ولكن لأن الينبوع لا يعطش، والمُروي دائماً ما يُروَى.[٥]

عندما وافقت المرأة أن تأخذ هذا الماء الذي يُحوِّلها إلى ينبوع وقالت: «يا سيد أعطني من هذا الماء» لم تكن تدري ما هو الباب الذي فتحته. لقد قَدَّمت ليسوع تصريحاً ببدء العمل فيها، مثل ذلك الإقرار الذي يقدمه المريض للجراح بالموافقة على إجراء العملية الجراحية. مَدّ يسوع المشرَط وقال لها أن تذهب وتدعو زوجها وتأتي إلى ههنا. فلم تدر إلا وهي تجيبه قائلة: «ليس لي زوج»، فغاص يسوع بالمشرط أكثر في لحمها قائلاً: «حسناً قلت: ليس لي زوجٌ، لأنه كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هو زوجك. هذا قلت بالصِدق». ما علاقة عطية الله ومحبة الله بهذا الكلام؟ نعم لا تكون هناك علاقة لعطية الله بمثل هذا الكلام إذا كان فهمنا لعطية الله أنه فقط يُباركنا ويحمينا ويوسِّع تخومَنا. لكن إن كان عطية الله هي أن يُغيِّرنا، فمن الطبيعي أن يبدأ في العمل معنا بأن يجعلنا نرى أنفسنا على حقيقتها. هو يحبنا ويقبلنا كما نحن، لكنه بالطبع لا يريد أن نظل كما نحن. فأي حُب هذا أن يَدْعنا نظلُّ أوانٍ مثقوبة وآباراً مُشَقَّقة لا تضبط ماءً؟

٥ أمثال ١١: ٢٥

الخروج المؤلم

> إنكار الذات هو الخروج منها وليس كراهيتها، إننا لا نستطيع أن نخرج من ذواتنا إلا بعد أن ندخل إليها ونراها كما هي ونعرف أن الرب يراها كما هي ويُحبها كما هي.

النقلة الحاسمة من الخزان إلى الينبوع هي النقلة من الانحصار في النفس إلى الخروج خارجها. الخزان مُنحَصِر في نفسه وفي فراغه وشقوقه، وإن نظر للخارج، فإنه يَنظُر لكي يبحث فقط عَمّا يملأه، ومتى امتلئ يتوقف عن النظر للخارج ولا يعود يرسل عينيه حوله إلا عندما يفرغ ويبدأ في البحث عَمّن يملأه من جديد. هكذا عاشت المرأة السامرية، وهكذا نعيش نحن. أما الينبوع فليس فقط ينظر للخارج ليبحث عمَّن يملأه، لكنه يخرج كله للخارج. تجري من بطنه أنهار ماء حَيّ. يُفتش حوله، لا عَمّن يعطونه، وإنما عَمَّن يُعطيهم هو مما قد أعطاه الله. هذا التحول شديد الألم. إن هذه هو الموت عن الذات الذي تَكَلَّم عنه المسيح مراراً. إنكار الذات والموت عن الذات الذي يتكلم عنه العهد الجديد ليس كراهية أو احتقار النفس أو تجاهل الكرامة أو الاحتياجات الإنسانية، لكنه نسيان الذات في خِضَم البحث عن التواصل مع الآخرين وتسديد احتياجاتهم بقدر المُستطاع، ويقبل أيضاً في تواضع أن يقوموا هُم بتسديد احتياجاته، فيكون هذا المجتمع، مجتمع ينابيع تفيض على بعضها البعض لا خزّانات تتصارع على الماء.

إننا في واقع الأمر لا نَنْسى إلا ما نطمئن إليه. إنا لا نستطيع أن ننسى أنفسنا إلا بعد أن نُحِبّ أنفسنا ونثق في محبة الله لنا، فنترك أنفسنا عنده أمانة، ونذهب لكي نبحث عن الآخرين. تماماً مثلما تركت هذه المرأة السامرية جَرَّتها أمانة عند يسوع

وذهبت لتُخبر أهل القرية أنها وجدت مَسيًّا. أما من يظل يبحث عن نفسه فهذا معناه أنه لم يجد نفسه بعد ولم يُحِبَها ولما يشعر بالأمان معها. إن من لا يُحِب نفسه لا يستطيع أن يُحب الآخرين. وإذا أخذنا نفس المنطق الذي يكتب به يوحنا الرسول: كيف يُمكن أن تحب الله غير المنظور (المختلف جداً عنك) وأنت تبغض أخاك المنظور (القريب جداً منك)، يمكننا أن نقول أيضاً: وكيف يُمكن أن تُحب أخاك الخارج عنك وأنت لا تُحب نفسك التي بداخلك؟

في هذايكتب برنان مانينج:

> إن كراهية النفس هي عقبة ضخمة في سبيل محبة الآخرين. عادة ما نُبغِض الآخرين ليس لأننا نحب أنفسنا أكثر من اللازم، بل على العكس، إننا نبغض الآخرين لأننا لم نقدر أن نُحِب أنفسنا بما يكفي. إننا نخاف ولا نثق بالآخرين لأننا نشعر داخلنا بعدم الكفاءة. إننا لذلك نختبئ خلف الغضب، والسخرية والتهكم، أو الإدانة، وذلك لأننا لا نؤمن بأنفسنا بما يكفي.[٦]

إنكار الذات هو الخروج منها وليس كراهيتها، وفي واقع الأمر لا نستطيع أن نخرج من ذواتنا إلا بعد أن ندخل إليها ونراها كما هيونعرف أن الرب يراها كما هي ويُحبها كما هي. هذا هي الخطوة الأولى في العملية الجراحية التي أجراها يسوع للمرأة السامرية. لقد كان يريد أن يقول لها: «هذه حقيقتك. أنا أعرفها، ولا أزال أحبك وأحترمك. وأريدك أنت أيضاً أن تُحبي نفسك وتحترميها كما هي وفي المكان التي هي فيه، قبل أن تخرجي بها من هذا المكان إلى مكانٍ أوسع وأرحب. لقد كُنتِ

6 Brennan Manning, *The Ragamuffin Gospel*.

خزاناً يبحث عن الماء ورَضِيَ بالماء المالح الذي لا يستطيع إلا أن يُبقيه خزاناً يمتلئ ويفرغ، بل الملح الذي في الماء يجعله أيضاً خزاناً مُشَقَّقاً يفرغ بسرعة. عطشك حقيقي ومشروع، لكن ليس هذا هو الماء الحَيّ الذي بالفعل تحتاجينه. أما الماء الحَيّ الذي أعطيه لك فسوف يجعلك ترتوين وليس ذلك فقط بل تتحولين إلى ينبوع يروي الآخرين. هذه هي عطيتي لك.»

في قصيدة يكتب المتصوِّف جلال الدين الرومي:

افتح ذراعيكَ، إذا كنت تبغي الاحتضان

اجلس في هذه الدائرة، توقف عن التصرف كذئب، واستشعر محبة الراعي تملأك

أفرغ نفسك من الهموم، وفَكِّر في الذي خَلَق الفِكر

لماذا تبقى في السجن، وبابه مفتوحٌ على مصراعيه

تَحَرَّك خارج دوامة أفكار الخوف، وعِش في صمت

ولتَنسابَ إلى أسفل، في دوائر متسعة من الوجود.[٧]

خمس خطوات للخروج المؤلم

ولكي نكون عَمَليين، أود أن أقترح خمس خطوات يُمكننا أن نسير عليهم في درب الخروج المؤلم من الانحصار في النفس إلى الله والآخرين، حتى نَتَغَيَّر مع المرأة السامرية ونتحول من خزانٍ إلى ينبوع، هذا إن كُنّا نريد بالفعل، وليس بمجرد الكلام، أن نثبت في المحبة وفي الله.

أولاً: صَلِّ وأنت لا تشعُر أنَّك تريد. كثيرون، وقد كُنت منهم في وقتٍ من الأوقات،

7 Coleman Barks, *The Essentials of Rumi* 3.

يظنون أن الصلاة ينبغي أن تكون بدافع داخلي، وأنَّك إذا لم تجد هذا الدافع الداخلي لا تُصَلّ، لأن الصلاة عندئذٍ لا تكون حقيقية ومن القلب. في الواقع هذا تصوُّر خاطئ تماماً، ذلك لأنه يتجاهل حقائق مُهمّة عن الحياة الروحية. أولاً يتجاهل حقيقة الخطية. الخطية هي ببساطة أننا غالباً ما لا نميل للصلاة. الصلاة، وغيرها من الرياضات الروحية شبيهة تماماً بالرياضة الجسدية، وقد استخدم بولس الرسول هذا التشبيه مراراً.[٨] نحن نُحب الرياضة ونستمتع بها، لكننا نُحب مُشاهدتها أكثر من مُمارَستها لأن ممارستها مُتعِبة، واللَّذة التي نحصل عليها من ممُارسة الرياضة لا تأتي إلا ببذل المجهود والضغط على النفس في البداية. لقد تعلّمت هذا الدرس مع ابني الأصغر. عندما دخل في طفولته مدرسة كُرة القدم أَحَبّ كرة القدم جداً، لكنه في كل مرة عندما يأتي موعد التدريب، كان يشعر بالكسل ولا يريد الذهاب وكُنا نضغط عليه ليذهب في الموعد المُحدد، وكانت هذه المدرسة صارمة جداً في موعد بدء التدريب. لكنه بمجرد أن ينزل إلى الملعب ويبدأ التدريب، كان ينسى كَسَلَه وينخرط في التدريب باستمتاع. بعد مرور سنوات، نسى ابننا هذا الكَسَل وأصبح ينتظر موعد التدريب ولم تعد كرة القدم بالنسبة له واجباً ثقيلاً بل مُتعة مُحَبَّبة. ومع الوقت أصبحت أكثر من مُتعة. لقد أصبحت بمثابة دَعوَتَهُ في الحياة فهو الآن لاعب في فريق مُسَجَّل في الدوري المصري للناشئين. نفس الشيء بالنسبة للرياضة الروحية. ينبغي أن نضغط على أنفسنا لكي نمارسها، ثم مع الوقت نجد المتعة الروحية الحقيقية عندما نتقابل

> الضغط على النفس ضروري لممارسة الخروج المؤلم من النفس إلى الله، وعندما نُصادفُه فإننا نفرح فرحاً يُنسينا ألم الخروج، وعندما نُصادِقة يصبح عدم الصلاة هو الألم الحقيقي.

٨ كورنثوس الأولى ٩: ٢٤- ٢٥ و تيموثاوس الأولى ٤: ٧- ٨

مع الله، ثم مع الوقت أيضاً تصير أكثر من مجرد متعة، فهي تحتل مُقَدِّمة الحياة نفسها ويذهب كل شيءٍ آخر إلى الخلفية. يكتب الأب غريغوريوس السينائي عن الصلاة: «الصلاة في المبتدئين تُشبِهُ ناراً، ومن الفرحة تندفق من القلب، ولكن في الكاملين تشبه نوراً يفيح عِطراً يملأ القلب.»[٩] هذا الضغط على النفس ضروري لممارسة الخروج المؤلم من النفس إلى الله، وعندما الله فإننا نفرح فرحاً يُنسينا ألم الخروج، وعندما يصبح عدم الصلاة هو الألم الحقيقي، وتصبح نار المبتدئين، ونور الكاملين. عندئذ يتحقق الوعد بأن كل ما نطلبه في الصلاة نناله لأننا عندئذ نكون على درب التغيير من خزان يطلب لنفسه إلى ينبوع يطلب لمجد الله وخير الآخرين.

ثانياً: . الصلاة ليست التدريب الروحي الوحيد للخروج المؤلم خارج النفس. هُناك تدريبات أخرى «تدرسنا على بيادر المُحَبّة»، كما يكتب جبران في«النّبي». دَرس الحبوب هو الضغط عليها بقوة حتى تخلع قشرتها المَيِّتة المُنحصِرة في نفسها وتصبح مُستَعِدة لأن تُطحن وتصير «خُبزاً مُقَدَّساً يُقَدَّمُ على مائدة الرب المُقَدَّسة» بحسب تعبير جبران. تقليدياً هناك مجموعتان من التدريبات الروحية: تدريبات الفِعل وتدريبات عَدَم الفعل، وهاتان المجموعتان تقعان أمام بعضهما البعض في توازن دقيق،[١٠] وكُلُّها تستهدفُ ذلك الهدف الواحد، الخروج من النفس للآخرين وإماتة الميل الفاسد داخلنا للانحصار في النفس. وكما أشرنا من قبل، لن يكون الخروج من النفس حقيقياً وصِحّيّاً بدون الدخول السليم إلى النفس ورؤيتها على حقيقتها. الصمت والصوم والوحدة تدريبات تُساعدنا أن ندخل إلى أنفسنا

٩ متى المسكين. حياة الصلاة الأرثوذكسية (برية شيهيت: دير القديس الأنبا مقار، ١٩٩٥). ٣٧- ٣٨.

١٠ دالاس ويللارد. التدريبات الروحية. ترجمة أوسم وصفي (القاهرة: الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة، ٢٠١٢). ٧- ١٣.

ونراها كما هي بُقبحها وأنانيتها وانحصارها في نفسها، فنلجأ إلى الله لكي نجده يُحبِّنا كما نحن، فنطمئن ونطلب الحياة والتغيير. ثم نُمارس المزيد من الخروج من النفس إلى الله والناس في العبادة والشركة والعطاء والخدمة. مؤخراً خرجت مع مجموعة صغيرة تزيد قليلاً على العشرة أشخاص لقضاء حوالي ثلاثين ساعة في خلوة صمت وتأمل وصلاة وصوم. عندما بدأ أعضاء هذه الخلوة يمارسون لأول مرة، وبانضباط تام، قضاء ساعة كاملة من الصمت والتأمل، ثم ساعتين، كانت المشاركات في ممجموعة مشاركة المشاعر التالية لفترات الصمت كُلها تدور حول الألم، وحول صعوبة المُقابلة الحقيقية مع النفس ورؤية ما بها من آلام وشكوك وغضب وخوف وغيرة، وكُل ما قد دأبنا على تغطيته بالكلام والأفعال. وكان سؤالهم في نهاية الخلوة: «هل ستكون الخلوات القادمة هكذا مؤلمة؟» تماماً مثلما يسأل المتدربون في صالة الألعاب لأول مرة مُدربهم: «هل سيظل العب على هذه الآلات مؤلماً هكذا كل مرة؟» إننا لا نستطيع أن نكون مع الناس بمحبة إلا إذا استطعنا أن نكون مع أنفسنا ونُحبَّها، ولا نستطيع أن نُحبّ أنفسنا دون أن نكون قادرين أن نختبر محبة الله والآخرين. إن المحبة تشبه مُحَرِّكا ذا ثلاث تروس، محبة الله ومحبة النفس ومحبة الآخرين، فإذا توقف تُرسٌ منهم، سرعان ما تتوقف التروس الأخرى أيضاً. يكتب هنري نوين في كتابه *حياة المحبوب*:

> عبر السنين، قد لاحظت أن أكبر فخ يُمكن أن نقع فيه في حياتنا، ليس هو النجاح والشهرة والسلطان، ولكنه كراهية النفس. النجاح والشهرة والمجد بالفعل يُمَثِّلون تجربة عظيمة للحياة الروحية، ولكن قوة إغراءهم في واقع الأمر تأتي من كونهم أجزاء من التجربة الأكبر وهي رفض النفس. إننا عندما نُصدِّق تلك الأصوات التي تقول لنا أننا بلا قيمة وغير

محبوبين، عندئذ نكون مستعدين لأن نرى أن النجاح والشهرة والقوة هم الحلول الجذابة التي سوف تنقذنا من براثن رفض النفس.[١١]

من المهم بالطبع التأكيد على أن الإفراط في أحد نوعي التدريبات الروحية على حساب الآخر يعيدنا إلى الانحصار في أنفسنا بشكلٍ أو بآخر. الإفراط في تدريبات الصمت والوحدة تجعلنا ننفصل عن الناس وربما نشعر إما بكراهية النفس واليأس الروحي، أو ربما نشعر بالكبرياء الروحي والاستعلاء على الآخرين. على الجانب الآخر، الإفراط في تدريبات الفِعل تجعلنا ننفصل عن أنفسنا الحقيقية، وبالتالي عن الناس دون أن ندري، ونُصاب بكبرياء من نوع آخر. فإن كان كبرياء الإفراط في الصمت والصوم والوحدة يُمكن أن يُصيبنا بكبرياء المُنعزلين، فالإفراط في العمل والخدمة والحركة، يُصيبنا بكبرياء الناشطين، خاصةً إذا أُضيف إلى ذلك الشُهرة والمَجد من الناس.

ثالثاً: رُبما لا يضاف التأمل في الطبيعة كثيراً إلى قائمة التدريبات الروحية لذلك أُحِبُّ أن أؤكد عليه هنا كتدريبٍ مُستَقِل. الطبيعة كتاب مفتوح لمحبة الله ورحمته. فيَ كل مرة يأمر الله البذور بالإنبات، وفي كل مرة تعود الزهور للظهور ربيعاً بعد خريف، فإنه يرسل لنا رسالة تقول: «مازلت أُحِبُكم. مازلت أعطيك فرصة الحياة لتلتفتوا إليّ.» السماوات بالفعل تُحَدِّث بمجد الله والفَلَكُ يُخبر بعمل يديه. يومٌ إلى يومٍ يذيع كلاماً غير منطوق بشفتين، وليلٍ إلى ليلٍ يُبدي عِلماً لم تُكتَب الكُتُب إلا لمحاولة وصفه. في كل الأرض تتكلم الطبيعة وإلى أقصى المسكونة يشهد الكون لجميع البشر بكلام الله حتى الذين لم تصل إليهم بعد كلمة الرب

11 Henri J. M. Nouwen, *Life of the Brloved* (New York: Crossroads, 1992) P.21.

المكتوبة.[١٢] السفر بالنسبة لي تدريبٌ روحيّ للخروج خارج النفس يشبه الموت إلى حد ما، وبخاصة السفر الطويل عبر المُحيطات. يبدأ التدريب بأن أُنتَزَع من فراشي قبل أن أكمل نومي. أحمل حقائبي في الظلام الدامس الذي يسبق الفجر مع برودةٍ لطيفة في الصيف وقارصة في الشتاء. أترك أوراقي ومفاتيح سيارتي وسيارتي نفسها واستقل سيارة لا أقودها، كما اعتدت دائماً. ثم أُلقَى في جوف طائر أسطوري أبيض بارد يصعد فوق السحاب وأنا محشورٌ في مساحة ضيقة لا تكاد تسمح بالحركة، مع أناسٍ من كل لون ولسان لا أعرفهم ولا يعرفونني لم تجمعنا إلا صدفة أننا ذاهبون إلى نفس المكان في نفس الساعة. أُنتَزع من مكاني وأحبائي وأصدقائي ويُقذَفُ بي فوق السحاب وخارج خطوط العرض والطول التي شَكَّلت دورة نومي وصَحوي فأنام حين اعتدت أن أصحو وأصحو عندما تنام بلادي بكل ما فيها من أهلي وأصدقائي. باختصار قد أصبحت خارج زمني ومكاني وعنواني وأكاد أكون خارج جسدي أيضاً. عندما يتم انتزاعي من مكاني وزماني اللذان يشعرانني بالقوة والسيطرة والاستقرار وأرتفع مئات الأمتار فوق المدينة التي تُشكل كل ما هو أنا، وأرى بيتي وبيوت من حولي كعلب الثقاب الصغيرة، ثم تصير مئات الأمتار آلافاً من الأمتار في الارتفاع وتصير مئات الكيلومترات آلافاً في البُعد. عندئذٍ أنسى تماماً مكاني وزماني وأشاهد من الخليقة ما هو مختلف تماماً عما اعتدت عليه، فمن صَفَار وغُبار صحارينا إلى خَضَار الشمال والجبال المُعَمَّمة بالبياض، ومن نُدرة الماء إلى المحيطات الشاسعة والشلالات المُنهَمرة. طبيعةٌ أُخرى وبَشَرٌ آخرون. كل هذا يشعرني بالضآلة والصِغَر وبأني لست سوى ذرة في خليقة الله الواسعة. فلا غرابة عندئذٍ عندما أكون في مثل هذا الجو التأملي المُتَّضِع، أن صير أقرب لإلهي. ولا غرابة أن أكثر المرّات التي استمعت فيها إلى

١٢ مزمور ١٩: ١-٦

صوته، كانت في تلك الساعات الطويلة التي كُنتُ فيها مُعَلَّقاً بين الأرض والسماء فوق صحاري شاسعة مُغطاة بالجليد.

باركي الله يا نفسي.

يا الله إلهي، عظيمٌ أنت، لابسٌ مجداً وكرامة.

يلفُّ نفسه بالنور كما بثوبٍ وكستارة يبسِطُ السماء.

فوقَ السُحُب بَنى حُجُراتِهِ العُلويَّة.

يجعل الغيوم مَركَبَتَهُ، وعلى أجنحة الريح يَعبُرُ السماء.

هو يجعل رُسُلَهُ رياحاً، ويجعل خُدّامَهُ ناراً ولهيباً.

ثَبَّتَ الأرض على أساساتها، فلا تهتز أبداً.

غطَّى الأرض بالمحيط كدِثار، مُغَطِّياً بالماء الجبال.

وعند توبيخك، عند صوتك المُرعِد، اندفع الماء من الجبال.

الجبال ارتفعت، والوديان سقطت، كل واحدٍ إلى المكان الذي عَيَّنتَهُ له.

وضعتَ حدوداً لا تقدر المياه أن تتجاوزها لتغطي الأرض.

جعلت الينابيع تَصُبُّ في الجداول المتدفقة بين الجبال.

تسقي الجداول كل الحيوانات البرِّية، وتأتي حتى الحمير البرِّية لتطفئ ظمأها.

تصنع الطيور أعشاشها قُربَ الماء، مُغَنِّيَةً على أغصان الأشجار القريبة.[١٣]

١٣ مزمور ١٠٤: ١- ١٢ (الترجمة العربية المُبسَّطة).

رابعاً: الاستماع أيضاً تدريبٌ روحيّ أعيشه كل يوم بسبب عملي كطبيبٍ نفسي. وقد أتاح لي هذا العمل أن أرى الإنسان من الداخل. ليس فقط ما يخفيه الإنسان عن الناس، بل أحياناً ما يُخفيه عن نفسه أيضاً. فعندما يبدأ الإنسان في الكلام ويجد بيئة آمنة، فإنه يبدأ في استكشاف مناطقَ في وعيه لم يُكن يذهب إليها، إما خوفاً أو خزياً. في هذا النوع من الاستماع المُمعِن (أي الباحث عن المعنى الحقيقي وراء ما يقوله الآخرون) نخرج، مؤقتاً، من حياتنا ومن إطارنا المرجعيّ frame of reference الذي من خلاله نرى الأمور ونحكُم عليها، وندخل الإطار المرجعي للآخر لنحاول أن نرى الدُنيا من منظوره هو، كيف يرى العالم وكيف يحكم على الأمور؟ هذا الخروج من النفس للآخر واحترام رؤيته للأمور (وإن لم نوافق عليها) هو تدريب من تدريبات المحبة، لا يُتيح لنا فقط الائتناس بالآخرين، لكنه أيضاً طَاعة لوصية المسيح أن نُحب بعضنا بعضاً وبالتالي نثبت في محبته هو. لا أستطيع أن أصف مقدار شعوري بحضور الله عندما أجلس لقيادة مجموعة المساندة للرجال الذين يعانون من الميول المثلية غير المرغوبة وحولي أشخاص تتراوح أعمارهم من الخامسة عشر إلى الخامسة والخمسين، ومنهم من هو عامل بسيط، ومن هو مدرس بالجامعة، ومن هو صاحب مصنع أو تجارة. من كُل خلفية دينية وسياسية واجتماعية في المجتمع، من الإخواني الذي كان معتصماً في ميدان رابعة العدوية، إلى ضباط الجيش والشُرطة، ومن السلفي كَثّ اللِّحية القادم من بلدة صغيرة بالدلتا، إلى الخادم الأرثوذكسي، إلى المُرَنِّم الإنجيلي. طوائف رُبما تناصب بعضها العَداء في المجتمع، لكنهم في هذه المجموعة يفتحون أعماق قلوبهم أمام بعضهم البعض ليكتشفوا أن الذي يجمعهم أكبر بكثير مما يُفَرِّقهم. في جو المحبة هذا، أُشعر بحضور الله وبأنني في بؤرة قصده من حياتي وأتيقن من قول المسيح

أننا عندما نُحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا ونحن في الله.

خامساً: اعترف للناس. في هذا المجال أريد أن أقَدِّم اعترافاً شخصياً. إنني أشهَدُ أن جزءًا مُهماً من نعمة الله التي أعطاني لكي أتخلص من إدمانات جنسية سِرية يعود إلى كوني قد مارست لسنوات طويلة، تدريب الاعتراف والمُحاسبة في هذا الأمر على مستويات عِدّة تتراوح من الصداقات الفردية مع أشخاص مارست معهم المُحاسبة المُتَبادَلة، إلى مجموعات العلاج والمُساندة التي كنت ألعب فيها دور المُساعد والمتلقي للمساعدة معاً، إلى الاعتراف العَلَني من على المنابر. أذكر مثلاً أنني عندما كُنت أُقَدّم مُحاضرة أمام مؤتمرٍ للقسوس والخُدّام الإنجيليين، شاركت بهذا الصِراع، الذي يشاركني فيه رجالٌ كثيرون، فجاءني بعد المحاضرة أحد القسوس المشاركين في المؤتمر وقال لي: «أريد أن أعترف لك أنني لم أكن أطيقك، وعندما صعدتَ أنت إلى المنبر، خرجتُ أنا من القاعة لأني لا أطيق الاستماع إليك. أما ما أريد أن أقوله لك الآن هو كلمة واحدة: سامحني» ثم احتضنني بقوة. إننا عندما نعترف بما نخزى منه أمام الآخرين، وعندما يبادلنا الآخرون الاعتراف، تحدث معجزة الالتحام Bonding وهذا أعمق من مُجَرَّد الشركة والتواصل والتعاطف السَطحي، ويحدث ليس بسبب الاتفاق في القضايا والأفكار وإنما بالرغم من الاختلاف فيها. الالتحام هو أن يصير شيئان شيئاً واحداً كما يتم لحام قطعتي حديد بتسخينهما معاً ولصقهما معاً ليصيرا واحداً. يحتاج الأمر إلى «صَنفَرة» كل قطعة حتى يظهر معندها الخام بلا أي غطاء من صدأ أو طلاء، ثم تسخينهما حتى ينصهر طرفاهُما. عندئذ يُمكنا أن يصيرا قطعة حديد واحدة. أتصور أن ما يصنع «الجَسَد الواحد» ليس فقط التناول من الجسد الواحد ولكن أيضاً الاعتراف لبعضنا البعض. لهذا لا عَجَب أن تصر الكنيسة الأرثوذكسية أن

يسبق التناول الاعتراف.[١٤] إن المحبة (آجابى) هي التي تجعل الله يثبت فينا ونحن في الله وتخلق الجسد الواحد. هذه المحبة (آجابى) هي المحبة غير المشروطة، أي أن نقبل بعضنا البعض «كما نحن،» ولكي يحدث هذا، ينبغي أن نظهر أمام بعضنا البعض «كما نحن». عندما تقبلني كما أنا، بكل ضعفي وخزيي وخطيتي، فإني أستقبل منك محبةً غير مشروطة، ليس ففط تشفيني من خزيي وخوفي الذين أحاول أن أخدرهما بالخطية، بل تجعلني وإياك، جسداً واحداً. هذا يجعل الاعتراف «سِراً» والمقصود بالسر، ممارسة جسدية بسيطة لا يبدو أنها تحتوي على أي قوة (كحديث الإنسان مع إنسان، أو مجموعة من البشر يأكلون قليلاً من الخبز والخمر، أو زوجان يصليان مع خادم أمام جمعٍ من الناس ليصيرا زوجين) لكن هذه الممارسات تحتوي على قوة روحية كامنة في الممارسة البسيطة بشكل سرّي. هذه القوة الروحية الكامنة تجعل المعترفين لبعضهم البعض، والمتناولِين معاً، والمتزوجَين، جسداً واحداً. هكذا تحل قوة الله السرّية في الممارسات البشرية العادية مثل الأكل والجنس والكلام، لتستخدمها لخلق جسد المسيح السِرّي في العلاقات الإنسانية.

أمرٌ آخر اختبرته شخصياً وأستطيع أن أخرج منه باستنتاج هام وهو أن الوحدة بين الخُدام والقادة المشهورين لا تأتي بقرار إرادي روحي فقط، وإنما تأتي أساساً من خلال ممارسات المحبة والشركة العميقة بينهم. إن من سمات سقوطنا البشري هو أن الخدام والقادة المسيحيين مُنذ فجر تاريخ الكنيسة،[١٥] عندما يستخدمهم الله في حياة الناس ويكتسبوا الشهرة والتأثير، يبدأون، ليس فقط في النظر إلى

---

١٤ وأن كُنت أظن أن الممارسة الكتابية للاعتراف هي الاعتراف بعضنا لبعض وليس للكهنة ولا حتى للأطباء والمشيرين (يعقوب ٥: ١٦).

١٥ رسالة فيلبي ١: ١٥- ١٦

أرجلهم كما فعل بطرس عندما كان يمشي على الماء بقوة الروح فسقط، لكنهم يبدأون أيضاً في النظر إلى بعضهم البعض. ويبدأ التنافس. هذا التنافس تؤجج ناره أيضاً جماهير التابعين الذين يقولون «أنا لبولس» و «أنا لأبولّوس».[١٦] ورغم أن النار الخفية التي لا يريد أحد أن يعترف لنفسه بها هي الغيرة والتنافس، فإن هذه النار تأخذ أقنعة مختلفة مثل «الخلافات الفكرية واللاهوتية والعقائدية.» والنار الأكثر عُمقاً من الغيرة والتنافس هي نار الخوف والقلق. القلق من الفناء وانعدام القيمة وانعدام الأهمية. خبرتي الشخصية المباشرة هي أن هذه النار لا تطفئها فقط مقاومتها والصلاة ضدها وقمع الجسد ومحاربة الغيرة، كل هذه استراتيجيات محدودة النجاح في إطفاء نار الغيرة والتنافس. أما الاستراتيجية التي تُنهي هذه الأمور في لحظة، هي عندما يفتح هؤلاء القادة معاً ما فيقلوبهم من صراعاتهم ومخاوف وعجز وفشل وخطية، وأيضاً يشاركون بأمانة أحاسيسهم تجاه بعضهم البعض، ويصلّون من أجل بعضهم البعض فإنهم يشفون من داء النرجسية[١٧] ويصيرون بعمل سرّي معجزي جسداً واحداً. عندما تلتحم القلوب تُغلق الشقوق التي تدخل منها فيروسات وشوائب الغيرة والتنافس، فالجسد الواحد لا تغير أعضاؤه من بعضها البعض. ولا تحدث هذه الوحدة وهذا الشفاء إلا من خلال التواضع الذي يصنعه الاعتراف بالعجز والحيرة والضعف وقبول المحبة الإلهية غير المشروطة التي نأخذها من الله ونعطيها لبعضنا البعض عندما نعترف لبعضنا البعض بالزلات والعيوب. هذا يجعل الاثنين واحداً بعمل سريّ معجزي. ليس الكبرياء إلا نتيجة للخوف، والخوف ناتج من غياب المحبة غير المشروطة والمحبة غير المشروطة نحصل عليها عندما نحصل على الحُب والاحترام بالرغم من

١٦ كورنثوس الأولى ١: ١٢

١٧ رسالة يعقوب الرسول ٥: ١٦

حقيقة عيوبنا وضعفاتنا عندما نعترف بها. فتكون المعادلة ببساطة هكذا. الاعتراف ــ يؤدي إلى المحبة غير المشروطة - التي تصنع الطمأنينة -التي بدورها تكسر الكبرياء وتصنع الوحدة. أما عندما يظل هؤلاء القادة نجوماً بعيدة عن بعضها البعض تدور الكواكب في أفلاكها فإنهم يتصلفون أكثر فأكثر، وذلك عندما يجتمع عددٌ أكبر من الكواكب حول كل نجم ويُجَمِّلون له الكبرياء ويوهمونه أنه مصدر العلم الوحيد والمعرفة الأسمى والروحانية التي لا تدانيها روحانية، لذلك لا عجب من سقوط الكثير من النجوم أو انطفائها بعد حين.

إننا ككنيسة بشكل عام قد أهملنا هذه الأسرار التي هي بمثابة «مُفاعلات» طاقة الروح القدس في الكنيسة على غرار المفاعلات النووية. أهملناها سواء بهجرانها تماماً أو بتحويلها إلى ممارسات ميكانيكية صورية، أو ربما اختزلناها كلها في الصلاة. فأصبحت الصلاة هي الوسيلة الوحيدة لحل كل المشكلات، وهذا ما لم يقله العهد الجديد، بل قَدّمَ تدريباتٍ مختلفة وأسراراً مُتَعَدِّدة كالتناول والاعتراف وغيرها، فأسوأ ما حدث هو أننا عندما نستخدم الصلاة لحل كل المشكلات، نفشل، والأسوأ أننا نفقد إيماننا بالصلاة لأننا قد انتظرنا منها كل شيء.[١٨]

> إننا عندما ننتظر من الصلاة أن تقوم بكل الأدوار التي ينبغي أن تقوم بها أسرار كنسية أخرى كالتناول والاعتراف، فإننا نفقد عمل هذه الأسرار، وأيضاً نفقد إيماننا بالصلاة.

خامساً: من ممارَسات الخروج المؤلم من النفس للآخرين، أن نُعطي ونحن لا نرجو الرَد[١٩] أو حتى الشُكر ونُعطي من إعوازنا، وأيضاً أن نُطلُب من الآخرين ما نحتاجه.

---

١٨ رسالة يعقوب الرسول ٢: ١٤- ١٦

١٩ لوقا ٦: ٣٥

ألم العطاء هو ألم التخلي عن السيطرة على المال والوقت والموارد، وكل ما يُمثِّل الأمان بالنسبة لنا. أما ألم الطَلَب فهو ألم التخلي عن الكبرياء وعن الصورة التي صنعناها أمام الآخرين وأمام أنفسنا أننا لا نحتاج لشيء من أحد. بل وأكثر من ذلك، فهناك مغامرة التَعَرُّض لألم أكبر، وذلك عندما نطلُب شيئاً ويُقابَل طَلَبُنا بالرفض. في الموعظة على الجبل يُقدم يسوع ما أسماه اللاهوتيون «القاعدة الذهبية» وذلك عندما قال: «فكُلّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء.»[٢٠] الناموس والأنبياء ليست قواعد وشرائع. إن جوهر الناموس هو المَحبة،[٢١] وجوهر المحبة هو أن تخرج من نفسك للآخر وتضع نفسك مكانه، وكل ما تريد أن يفعل بك تفعله أنت به.

٢٠ متى ٧: ١٢

٢١ تيموثاوس الأولى ١: ٥

«المحبة والخوف لا يجتمعان، فالمحبة الكاملة تطرد الخوف.

الخوف مرتبط بالعقاب، ومن يخاف، لم تكتمل محبته»،

الأصحاح الرابع من رسالة يوحنا الرسول الأولى العدد ١٨

(الترجمة العربية المُبَسَّطة)

الجزء الثالث

دواء الخوف والخزي

«المحبة والخوف لا يجتمعان، فالمحبة الكاملة تطرد الخوف.»

«الخوف مرتبط بالعقاب، ومن يخاف، لم تكتمل محبته.»

في هاتين العبارتين البسيطتين يُقَدِّم الرسول يوحنا قاعدة ذهبية لا أظن نفسي مُبالغاً إن قلت أنها تُمَثِّل عُصارة الصحة النفسية والاجتماعية والأخلاقية للبشر. فالخوف والخِزي هما أصل الاضطرابات النفسية وعدم النضوج الوجداني، وهذان يؤديان إلى الكثير من حالات فشل العلاقات والفشل الأخلاقي أيضاً. يفترض علماء النفس الوجوديون أن الاضطرابات النفسية تنتج من رفض، أو عدم قدرة الإنسان، التعامل مع القلق الوجودي الطبيعي الذي ينشأ من مواجهة مُعطيات الحياة، مثل الموت، والوحدة، وغياب المعنى، ومسئوولية الحُرية.[1] ويرى هؤلاء العلماء أن الإنسان لكي يتغلب على ذلك القلق الوجودي عادةً ما يستخدم استراتيجيات سحرية تجعله يعتقد أنه شخصٌ خاص رُبما لن يقترب منه الموت وذلك بتمجيد نفسه بالمبالغة في الإنجاز والإنتاج، أو بالالتصاق المُبالَغ فيه بالآخرين. بالطبع لا يعي الإنسان أنه بهذا يحاول أن يُقاوم الموت، فعلى مستوى الوعي يقول أن الموت علينا حق كما يقولون، لكن الخوف من الفناء، أو بالأحرى عدم احتمال المحدودية، هو الدافع الخفي الذي يدفعنا لا واعين إلى التصرف

1 Irvin Yalom, *Existential Psychotherapy*

بشكل مُبالغ فيه مع كل من المال والطعام والجنس والترفيه، وأيضاً العمل والنجاح ورضا الناس وكل ما من شأنه تضخيم الحياة وتعظيمها.[٢] هُنا يتقاطع المَرَض مع الخطية، فهذه الاستراتيجيات المَرَضيّة تفتح الباب أمام الكثير من الخطايا مثل خطايا الطمع وجمع المال،[٣] أو خطايا العلاقات والخطايا الجنسية، أو خطايا النَهَم للطعام أو الممارسات اللاأخلاقية في العمل، وغيرها. ولعل ثالوث الخطايا الشهير: المال والجنس والشهرة يكشف حقيقة أن الإنسان يمارس الخطية هرباً من القلق. ولعل سفر أيوب يُصرِّح بذلك على لسان أليهو، وهو الشخصية التي تقدم المغزى الروحي للسفر كُله في النهاية.يقول أليهو في العددين العشرين والحادي والعشرين من الأصحاح السادس والثلاثين: «لا تلهث وراء الظُلمة التي تُغَطي الآخرين. احرص على ألا تلتفت إلى الشَرّ فيبدو أنك اخترت ذلك بسبب ألمك.»[٤] هذه الظُلمة التي تغطي الآخرين هي ظلمة القلق الوجودي الذي يتكلم عنه عُلماء النفس والفلاسفة الوجوديون .إنه الخوف والخزي اللذان شعر بهما آدم عندما خرج بعيداً عن نطاق محبة الله. ومازال يحاول الهرب منهما مستخدماً أوراق التين بكل أشكالها.

من المثير للاهتمام أن الكلمة المُترجمة «أَلَمَك» في الفقرة السابقة تأتي في ترجمة فان دايك/البستاني: «الذُل»-«احْذَرْ، لاَ تَلْتَفِتْ إِلَى الإِثْمِ لأَنَّكَ اخْتَرْتَ هذَا عَلَى الذُّلِّ.» بالفعل فنحن كثيراً ما نختار الإثم بديلاً عن ألم الخوف وذُلّ الخزي. ولا يرفع ألم القلق الوجودي وذُل إحساسنا بالعجز أمام هذا العالم الفسيح الذي لا نستطيع السيطرة عليه، سوى الحُب. وليس أي حُب. إننا نحتاج للُحب من الكيان

---

٢ رسالة يوحنا الأولى ٢: ١٦

٣ لوقا ١٢: ٢٠- ٢١

٤ أيوب ٣٦: ٢٠- ٢١ (الترجمة العربية المبسَّطة)

الأكبر. إننا نحتاج لأن نُدرِك أننا محبوبون ومقبولون من ذلك الوحيد الذي له السيطرة الكاملة على هذا الكون. يشعر الطفل الوليد بالخوف والخزي لأنه صغير وضعيف وعاجز ولا يشفيه (جزئياً) من هذا الذل، إلا المحبة غير المشروطة التي تمنحها الأم في الشهور الأولى من حياته، حيث تحتضنه وترضعه وتسهر على رعايته وتسديد احتياجاته الأساسية. هذا يُقدم له ما نُسمّيه: «الأمان الأساسي» أو «الثقة الأساسية،» ويقول علماء نفس النمو إن هذا الأمان الأساسي هو ذخيرة الإنسان للتعامل مع القلق فيما يلي من سنوات العُمر.[٥]

> «من خاف لم تكتمل بعد محبته» لا يجب ألا نفهم أن هذه العبارة تلوم من يخاف، وإنما هي تشجعه أن يستقبل المزيد من المحبة.

كُل هذه الحقائق النفسية والسلوكية والأخلاقية يُعبِّر عنها يوحنا الرسول بهذه العبارة المُكَثَّفة: «المَحَبّة تطرُد الخوف.» وعندما يقول إن «من خاف لم تكتمل بعد محبته،» لا يجب ألا نفهم أن هذه العبارة تلوم من يخاف، وإنما هي تشجعه أن يستقبل المزيد من المحبة. لكي نفهم ماذا يقصد، علينا أن ننظر للعدد التالي (وهو العدد التاسع عشر) الذي يقول فيه «نحن نُحِب لأنه هو أحبنا أولاً.» نحن كالطفل الرضيع الذي لا يستطيع أن يُحب، ولا حتى نفسه، إلا عندما يُحَبّ.[٦] بدون محبة الله، لا نستطيع، ليس فقط أن نُحِبُّهُ، وإنما لا نستطيع أن نُحِب مُطلَقاً ولا حتى أنفسنا، بل نظل تحت ظلمة القلق الوجودي التي تغطي كل الناس. إن ما يُخرجنا من ظلمة القلق هو محبة ذلك الأب الكبير الذي يُحبنا محبة غير مشروطة مثل

---

٥ أوسم وصفي. *مهارات الحياة. قيادة الحياة وجدانياً وفكرياً وعلاقاتياً وروحياً* (القاهرة: مؤسسة الحياة، ٢٠١١) ص. ١٥٧- ١٦٠.

٦ ترجمة فان دايك/ البستاني تقول: «نحن نُحِبُّه لأنه هو أحبنا أولاً.» وهي ترجمة غير دقيقة ومشكلة ترجمتها هكذا أنها تُصوِّرنا كما لو كُنّا أنداداً لله. هو يُحبُنا فنحن نُبادله الحُب لأنه أحبنا. أما الترجمة العربية المُبَسَّطة فهي أدق لأنها تقول إننا «نُحب» بشكلٍ عام، لأنه هو أحبنا أولاً.

محبة الأم لوليدها الرضيع الذي لا يستطيع أن يقدم لها شيئاً في المُقابل، وكُلما أحبته، كلما تعلم أن يُحِب نفسه ويُحبّها ويُحِبّ الحياة ويتعامل مع عجزه بقلقٍ أقل. عندما يقول الرسول يوحنا أن من خاف لم يتكمَّل بعد في المحبة، لا يقصد أن من خاف فهو قد خاف لأنه لا يُحِب، وإنما قد خاف لأنه لم يُحَب. وإن كان لا يُحِبّ فهو لا يُحب لأنه في الأساس لم يُحَب كما ينبغي، أو لم يستطع أن يستقبل المحبة كما ينبغي. إنه لا يلومنا بل يدعونا إلى استقبال المحبة الإلهية والثبات فيها. وفي واقع الأمر محبة الله هي مُقَدَّمة للجميع: من يفهموها ومن لا يفهمونما، من يطلبونها ومن لا يطلبونها، ولكن من يفهمونها ويطلبونها ويبادلون محبة الله محبة يستقبلون قدراً متزايداً من المحبة والتواصل، بل والأهم من كل ذلك، يتغيرون ليصروا على شبه ذلك الإله المُحِب.

في هذا الجُزء سوف نتناول في فصلين (الفصلين الأخيرين) الخوف والخزي. ماذا يفعلان بنا؟ وكيف يشفينا الحُب منهما؟

الفصل الخامس

لا تَخافي

ليست «لا» الناهية وإنما «لا» المُطمئنة!

يتكلم بول تيليك في كتابه *الشجاعة أن تكون* عن ثلاثة أنواع من القلق الوجودي: الخوف من الموت وعدم الوجود النهائي وهذا يؤدي، بحسب الطبيب النفسي المسيحي فرانك ليك، للشخصية الهستيرية والانطوائية. والخوف من اللامعنى النهائي وهذا يؤدي للشخصية الشكاكة (البارانوية)، والخوف من الذنب والدينونة النهائية وهذا يؤدي للشخصية الاكتئابية. هذه الأشكال الثلاثة من القلق تقع في جذور حالات أو مواقف ثلاثة مرت فيها نفس الطفل الرضيع من خلال الفقر للحب الصحي السليم في هذه المرحلة الحساسة من تطور الشخصية. ولا يوجد في هذا النموذج التطوري الديناميكي ما يتعارض مع العقيدة الكتابية للإنسان بل على العكس يلقي هذا التفسير النفسي العميق الكثير من الضوء على العقيدة المسيحية الخاصة بالإنسان وفدائه.[1] هذا عن علاقة الخوف بالاضطراب النفسي، أما عن علاقة الخوف بالخطية،

> في حد ذاته *القلق* ليس خطية لكنه الباب والذي يؤدي للخطية.

1 Frank Lake, *Clinical Theology, A Theological and Psychological Basis to Clinical Pastoral Care*. (London: Longman, 1986), 13.

فيقدم اللاهوتي اللوثري الأمريكي تيد بيترز[2] تحليلاً مُفَصَّلاً للخطية من منظور القلق. يبدأ بيترز بذكر التقسيم الكلاسيكي للخطايا (الرذائل) السبع المُميتة The Seven Deadly Sins وهي: (١) الكبرياء (٢) الطَمَع (٣) الشهوة (٤) الحَسد (٥) النَهَم (٦) الغضب و (٧) الكَسَل. ثم يقترح أنه بدلاً من هذه القائمة من الخطايا المُنفصلة، سوف يقوم بتشريح الخطية ليَكشف تَطَوُّر أشكال الخطية كُلّها من القلق كَمُحَرِّك أَوَّلِيّ لكل الخطايا، فبالرغم من أن *القلق* في حد ذاته ليس خطية لكنه الباب الذي يؤدي للخطية. يرى اللاهوتي الألماني رينولد نيبور القلق أنه حالة داخلية من التجربة بالخطية وهو في ذلك يتبع سورن كيركجارد الذي يصف القلق بأنه الحالة النفسية التي تسبق الخطية.[3] إننا في أعماقنا لدينا ذلك الإحساس بأننا جزءٌ من كُلٍ أكبر، لكن بسبب فشلنا في أن نثق بقدرة وأمانة الله في الحفاظ على هذا الكُلّ الذي نحن جزءٌ منه، نميل للتأكيد المُبَالغ فيه على الجزء الصغير الخاص بنا في الحياة ونتعامل مع هذا الجزء الصغير وكأنه الكُل وليس جزءًا صغيراً منه. لعل مثالاً بسيطاً ومُعتاداً لذلك ميلنا للانكفاء على الاهتمام بتنظيف شُققنا الصغيرة لأننا لا نثق في باقي السُكان أنهم سوف يحافظون على نظافة البناية كلها، كما فقدنا الثقة أيضاً في مؤسسات الحكومة والبلدية للحفاظ على نظافة الشارع والمدينة.

هذا القلق بدوره يقودنا إلى *عدم الإيمان*. إننا عندما لا نتكل على الله ولا نثق به فنحن تدريجياً نفقد إيماننا به. فما هو الإيمان إلا الثقة؟ لذلك يكتب مارتن لوثر إن «أصل

2 Ted Peters, God –*The World's Future, Systematic Theology for a Postmodern Era* (Minneapolis: Fortress Press,2000), 163.

3 Reinhold Niebuhr, *The Nature and Destiny* of Man, 2 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1941), 1: 182. See also Paul Tillich, *The Courage to Be* (New Haven: Yale University Press, 1952), 35.

الخطية هو عدم الإيمان.»[4] وعندما نفقد إيماننا بالله كمصدرٍ لأماننا، فإننا نميل إلى تضخيم أنفسنا والاتكال على ذراعنا لتحقيق الأمان. عندئذٍ نحاول أن نستخدم الفاني لتحقيق عدم الفناء، وليس هذا سوى *الكبرياء*. هكذا نرى أن القلق يؤدي لعدم الإيمان، الذي يؤدي بدوره إلى الكبرياء والسيطرة. لذلك يرى أغسطينوس أن الكبرياء هو بداية الخطية.[5] هكذا نلاحظ التطوُّر اللاهوتي في النظرة إلى الخطية. أغسطينوس المُنتمي لحقبة الآباء رأى أن الخطية تبدأ بالكبرياء، ثم جاء المصلحون (مثل كالفن) فذهبوا إلى عُمق أبعد في القلب الإنساني ليروا أن الكبرياء ينبع أساساً من عدم الإيمان. أما لاهوتيو الأرثوذكسية الجديدة واللاهوتيون الوجوديون مثل تيليك ونيبور، فذهبوا إلى ما هو أعمق من ذلك ليروا أن عدم الإيمان نفسه ينبُع من القلق عندما لا يُلقي الإنسان هَمَّهُ على الله.[6] ونلاحظ أيضاً أننا كلما ذهبنا إلى الأعمق في اللاهوت، كلما اقتربنا من لاهوت العهد الجديد الذي يعتبر أن الحل هو المحبة التي هي دواء الخوف والقلق. إن من يخاف ويقلق، وبالتالي يفقد إيمانه ويَتَكَبَّر، هو من لم يحصل على القدر الكافي من المحبة. الحل هو أن نستقبل الحُب، وكما يقول تيليك: نَقبل أننا مقبولون كما نحن فنطمأن، ولا نحاول أن نُحقق أماننا بأنفسنا.

عندما نحاول أن نحقق أماننا بأنفسنا (الكبرياء) فإن كبرياءنا يقودنا لمرحلة تالية من مراحل تَطَوُّر الخطية وهي *الشهوة*. فمن يرى نفسه مركزاً للكون يريد أن يدور الكون كله حوله وتصب كل الأنهار في بحيراته. الشهوة هي الرغبة في المزيد من

4 Calvin, Inst., 2. 1. 4; Luther, LW, 1:162, 34: 155.

5 Calvin, Inst., 1.1.4.

٦ مزمور ٥٥: ٢٢، ٥٦: ٣ و رسالة بطرس الرسول الأولى ٥: ٧

كُل شيء، وهي إن كانت مرتبطة تقليدياً بشهوة الطعام أو الشهوة الجنسية، إلا أن تطبيقاتها أكثر من ذلك كثيراً. إنها الرغبة غير المحدودة لاجتذاب كل ما في العالم إلى النفس. إنها الطمع الذي يقول عنه بولس إنه «عبادة أوثان»[٧] وفي واقع الأمر هي عبادة لوثنٍ واحد هو الذات. الشهوة هي حُب مريض للنفس يصل إلى تأليهها. وفي الواقع الروحي هذا يُمثِّل كراهيةً للنفس إذ يعمل عكس مصالحها الحقيقية.[٨] ولكي يستمر الإنسان في هذا يبدأ في ممارسة *التبرير*. لا أحد يريد أن يعترف لنفسه بأنه قد وصل إلى هذه الدرجة من الفساد والخطية. ولعل العالم حولنا يمتلئ بمحاولات مُضنية لتبرير الخطية، وإلباس الشر ثوب البرّ، وخلق واجهات جميلة لقبور مليئة من الداخل بعظام أموات وكل نجاسة. فالإنفلات الجنسي أصبح حُرّية، حتى أن الجنس مع الأطفال صار اسمه «التواصل الحميم بين الأجيال»[٩] والأنانية التي تجعل الرجال والنساء لا يحتملون بعضهم البعض ويسارعون بالطلاق وهدم الأُسَر وتشريد الأطفال يسمونها «فرصة جديدة للحياة» وهكذا...

يحكي لنا الإنجيل عن أن محاولات التبرير هذه ليست أمراً جديداً فهي قديمة قِدَم وجود الخطية على الأرض. فعندما قام أحد الناموسيين لتجربة يسوع مُوَجِّهاً له السؤال :«ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟»، قال له يسوع: «ما هو مكتوبٌ في الناموس، كيف تقرأ؟» فأجاب وقال: «تُحِب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك.» فقال له يسوع: «بالصواب أجبت. افعل هذا فتحيا.» لم ينته الحوار عند هذا الحد، فهذا الناموسي

---

٧ الرسالة إلى أهل أفسس ٥: ٥ و إلى أهل كولوسي ٣: ٥

٨ إنجيل يوحنا ١٢: ٢٥ و الرسالة إلى أهل أفسس ٥: ٢٨ ب

٩ صارت هُناك مؤسسات مثل تلك المؤسسة الأمريكية التي تدافع عن «الحُب» بين الرجل والصبي National Association of Man Boy Love Affairs (NAMBLA)

المُتدَيّن مثلنا جميعاً يريد أن يهرب من الوصية بأن يقوم بمناقشتها لكي يبرر لنفسه بشكلٍ أو بآخر عدم طاعتها أو تحويلها إلى مجرد طقوس دينية شكلية لا تُكَلِّفه عناء الخروج المؤلم من النفس الذي تطالب به المحبة. لذلك نقرأ تعليق لوقا البشر: «وأما هو فإذا أراد أن يُبَرِّر نفسه، قال ليسوع: «ومن هو قريبي؟» فراح يسوع بعد ذلك يقُصّ عليهم مثل السامري الصالح. من أشكال التبرير، بحسب رينيه جيرارد[10]، ما يُسمى بالبحث عن كبش فداء Scapegoating. وفي هذا النوع من التبرير يقوم المجتمع بتقديم ذبيحة أو كبش فداء ليُحَقِّق استقراره النفسي. وهذا يظهر تاريخياً في صورة تقديم ذبيحة لألهة الطبيعة، أو حرق أحد الأطفال لكي تهدئ الأعاصير والبراكين. وإذا كان اليهود يستنكرون هذه الممارسات التي يمارسها الأمم، فهم أيضاً مارسوا الوصم والإقصاء والشيطنة، ليس فقط للأمم الذين اعتبروهم كلاباً، بل بني جنسهم السامريين، وهذا ما كان يسوع يريد أن يواجههم به من خلال مثل السامري الصالح. وليس اليهود فقط هم من فعلوا ذلك، بل مارس المسيحيون (أتباع يسوع) كل ألوان الاضطهاد لليهود في القرن الأول الميلادي، ثم امتد ذلك للعصور الوسطى حيث كان يتم اصطياد الساحرات وقتلهم باعتبار أنهن سبب البَلَاء وسوف يؤدي التخلص منهم إلى إرضاء الله وبالتالي شفاء الأمراض وحلول البَرَكة. نفس هذه المُمارسات تحدث الآن في العصر الحديث في صورة ما نُسمِّيه «لوم الضحية الضعيفة» لتحقيق الاستقرار الأسري والمجتمعي؛ لوم الطفلة التي تعرضت للاعتداء الجنسي من عَمّها وذلك للحفاظ على استقرار الأسرة، ولوم الفتاة التي تتعرض للتحرُّش في الشارع باعتبار أن السبب هو ملابسها المُثيرة. هذا لأننا لا نستطيع أن نقاوم المُعتدي الأقوى، سواء في الأسرة

10 Rene Girard, *Violence and the Sacred* (Baltimore: John Hopkins University Press, 1977), 10.

أو في المجتمع، فنقوم بتخدير من خلال لوم الأضعف واستخدامه ككبش فداء. في ذلك يكتب تيد بيترز:

> إن تركيبة التبرير والبحث عن كبش فداء، مثل كل تراكيب الكَذِب، تركيبة هشة. الحقيقة بطبيعتها مُهَدِّدة. والحقيقة التي قد أُعلِنَت في صلب المسيح هي حقيقة تُهَدِّد هذه الكِذبة بقوة. إن استشهاد ذلك الشاب البريء من الناصرة يفضح الحقيقة القَمعية للنظام المجتمعي، ويكشف منظومة محاولة تبرير النفس من خلال البحث عن كبش فداء... لقد أصبح المسيح هو كبش الفداء النهائي الذي يضع نهاية (ولو نظرياً) لنظام الذبائح وكباش الفداء.[11]

القلق يؤدي لعدم الإيمان، وعدم الإيمان يؤدي للكبرياء. الكبرياء بدوره يؤدي للشهوة، والشهوة للتبرير والقسوة، ثم التجديف في النهاية.

هذا يدفع للخطوة السادسة في تطوُّر الخطية وهي *القسوة*. إننا بالطبع نُعامِل كبش الفداء بقسوة. كل الكراهية التي نكنها لأنفسنا، وكل إحباطنا من حياتنا ومن العالم، نُوَجِّهَهُ نحو تلك الضحية الضعيفة لكي نُبرِّر أنفسنا.وأخيراً يأتي *التجديف*. وليس التجديف، بحسب بيترز، مجرد تدنيس اسم الرب، ولكنه كل محاولة لسرقة القوة والسلطان من الرموز الإلهية. هناك نوعان من التجديف، الأول خبيث وهو استخدام رمز مُقَدَّس وربطه بنظام التبرير وذلك عندها يصبح المختلفون ليسوا أعداءنا وإنما «أعداء الله»، والتخلُّص منهم مهمة مقدسة. بالطبع نجد هذا النوع من التجديف على اسم الله في كل ألوان

11 Ted Peters, God – *The World's Future*, 171.

الإرهاب الديني. الجدير بالاهتمام أن الإرهاب الديني لا يحدث فقط من خلال تلك الصور المفضوحة قسوتها، لكن نفس هذا الإرهاب الديني يُمكن أن يحدث أيضاً في الكنيسة عندما نمارس القسوة على من نختلف معهم باعتبارهم مُهرطقين أو فاسدي العقيدة.

نفس القسوة والتبرير التي يُمكن أن يستخدمها زوجان في إنهاء علاقة زواجية كان يُمكن من خلال المحبة والاحتمال أن تستمر ويتم المحافظة على الأسرة والأطفال، يمكن أن تمارسها أيضاً المؤسسة الدينية الكَنَسية عِندما تمنع الطلاق وتُصِر على حبس الزوجات والأزواج في زيجات فاشلة ومُضِرّة لكل أطرافها[١٢]، وتُضاف لخطية القسوة خطية التجديف عندما يمارَس ذلك النوع من القسوة باسم الرب. هذا النوع «الديني» الخبيث من التجديف في تصوُّري هو سبب قوي من أسباب الإلحاد. فإن كانت المحبة تجلب مزيداً من المحبة والعبادة، فالتجديف يجلب المزيد من التجديف.

هكذا نرى أن القلق يقودنا إلى كل الخطايا، من عدم الإيمان، للكبرياء، للشهوة، للتبرير، للقسوة، للتجديف. بالطبع يُمكن أن يتوقف الإنسان عند أي «محطة» من محطات «قطار الخطية،» فليس بالضرورة أن يصل الجميع إلى التجديف. ربما نتوقف عند الكبرياء، أو الشهوة والتبرير دون أن نصل للقسوة. أو ربما نصل للقسوة لكن لا نعبر إلى التجديف، وهذا بقدر حجم القلق الذي لا يزال في قلوبنا.

---

١٢ هنا يتوجب إضافة تعليق. فيجب أن تكون هناك دراسة دقيقة واضحة ومُحايدة يمكن من خلالها للكنيسة أن تعبر عن موقفها الذي ينبغي أن يُمثل الرب بأمانة فترسم (بقدر الاستطاعة) خطاً فاصلاً بين قسوة الاستسهال في كسر عهود الزواج. وقسوة حبس النساء والرجال في زيجات مؤذية. بالطبع دور الكنيسة هنا هو أن تعلن عن رأيها (الذي من المفترض أنه يمثل رأي الرب) هذا إذا كان الأشخاص يطلبون بركتها على الزواج. وستظل الكنيسة تحاول أن تمثل الرب لكن مع الفارق دائماً فالكنيسة دائماً بشر.

القلق هو المُحرِّك الرئيسي لهذا القطار الذي يُسرع إلى الهاوية. وإن كان القلق هو المُحرِّك لقطار الخطية، فالمحبة هي «الفرامل»، فالمحبة هي الدواء الشافي للخوف والقلق، وهي إذاً هي الدواء الشافي لكل آلام البشرية النفسية والاجتماعية والأخلاقية.

لا تَخَف

يكتب أحد الدارسين أن عبارة «لا تخف» تَكَرَّرَت ٣٦٥ مرة في الكتاب المقدس، وكأن الله يقول لنا كل يوم من أيام السنة: لا تخف! «لا» هنا هي «لا» المُطَمئِنَة، إن جاز التعبير، وليست «لا» الناهية (وإن كانت لغوياً هي بالطبع لا الناهية). المقصود هنا أن الله يقول لا تخف ليس لأن الخوف خطية، ولكن «لأني أنا معك». إننا إذا تخيلنا مثلاً طفلاً يقوم في منتصف الليل مفزوعاً من كابوسٍ مخيف فيهرع باكياً إلى غرفة نوم أمه ليخبرها بمخاوفه، فتقوم الأم بفتح النور وانتهار الطفل وتوبيخه بسبب خوفه قائلة له: «لا تخف! الخوف خطية!» هل هذه الصورة تُعبر عن الله الذي نعرفه من خلال صفحات الكتاب المقدس؟ والأهم، الذي رأيناه في وجه يسوع المسيح؟ بالطبع لا.

الصورة بالتأكيد ليست كذلك. إن الأم في الأغلب سوف تأخذ طفلها في حضنها وتطمئنه قائلة: «لا تخف. أنا معك». هذا يُطمئن الطفل ويهدئ من روعه ويُذهِب من خوفه. أما إذا كانت قد انتهرته، فهو لن يخاف فقط مما قد رآه في الحلم، بل سيخاف منها هي أيضا، وهذه مأساة. عندما تصير الأم التي ينبغي أن تكون مصدراً للأمان، هي نفسها منبع الخوف. للأسف هذه أيضاً هي المأساة التي يقدمها لنا الدين الذي

يجعلنا نخاف من الذي ينبغي أن يجعلنا نطمئن، وذلك عندما يُصوِّر لنا أن الله يغضب منّا بسبب خوفنا. لهذا السبب لا يُشَكِّل الدين حلاً للخطية ولا للتدهور الأخلاقي، لأن الدين لا يشفي من القلق وإنما يزيده، وذلك بإضافة القلق من الله (القلق الديني) إلى القلق الوجودي. لهذا السبب نجد كل أشكال الخطية من كبرياء وشهوة وتبرير وقسوة موجودة في المتدينين، وربما أكثر من غير المتدينين.

ماذا إذاً عن تلك الفقرة الموجودة في سفر الرؤيا: «وَأَمَّا الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ وَجَمِيعُ الْكَذَبَةِ، فَنَصِيبُهُمْ فِي الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي»[١٣] في واقع الأمر لم تكُن الترجمة للعدد الثامن موفقة. فالمقصود بالخائفين هنا هم الجُبناء. وهناك فرق شاسع بين الخوف والجُبن. الخوف شعور أما الجُبن فموقف وفِعل. الخائف ربما يَجبُن ويتراجع ويُنكر الإيمان، وربما لا يَجبُن ولا يتراجع، وإن ظلّ خائفاً. من الممكن أن يتصرف الخائف بشجاعة، ومن الممكن أن يتصرَّف بجُبن وتراجع وإنكار. الخطية هنا هي خطية إنكار الإيمان بسبب الخوف، وليس الخوف في حد ذاته كشعور. إنه اختيار عدم الاتكال على الرب في وقت خوفنا.

يكتب داود في المزمور السادس والخمسين الذي نَظَمَهُ عندما أخذه الفلسطينيون في جَتّ: « فِي يَوْمِ خَوْفِي، أَنَا عَلَيْكَ أَتَّكِلُ ».[١٤] لذلك تأتي الترجمة العربية المُبَسّطة وهي أدَقّ في ترجمتها لهذه الفقرة من رؤيا يوحنا:

«وأما الجُبناء وغير المؤمين والفاسدون والقاتلون والزُناة والسَحَرَة وعَبَدة الأوثان وكل الكاذبين، فسيكون مصيرهم في البحيرة المُتَّقدة

١٣ رؤيا يوحنا ٢١: ٨

١٤ مزمور ٥٦: ٣

بالكبريت المُشتعِل. ذلك هو الموت الثاني». (بالطبع تعبيرات مثل بُحيرة مُتَّقدة بكبريت مشتعل ليست تعبيرات حرفية، فهي تصف واقعاً روحياً وليس مادّياً ولكنها لغة تصويرية المقصود بها الإشارة للوجود خارج محضر الله).

لأني أنا معك

هذا هو المُبَرِّر الذي يُقدمه الله لعدم خوفنا. لا تَخَف ليس لأن الخوف خطية، ولكن لأني أنا مَعَك. وسوف يتلاشى خوفك ليس عندما تحاول ألا تخاف تطبيقاً لوصيةٍ أو أمرٍ كتابيّ، ولكن عندما تُدرِك بالفعل أن الله، الأب المُحِب والقويّ، معك وبصورةٍ شخصية حميمة. أتصور أن هناك ثلاث معانٍ لكلمة «مَعَك» وهذه المعاني هي التي نحتاج لأن نُدرِكها لكي تدخل إلى أعماقنا، فنحصل على الوعي أن الله بالفعل معنا. أولاً: أنا *معك ولست ضدك*. يُصوِّر لنا الدين، وهو فيروس شائع يقوم بتشويه الله والعلاقة معه، أن الله مُتَرَبِّصٌ بنا منتظراً أن نقع في الخطية فيوقع بنا العِقاب. هذه أبعد صورة عن إله الكتاب المقدس، إله العَهد الذي يكتب عنه بولس الرسول: مَاذَا نَقُولُ لِهذَا؟ إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟ ٣٢الَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟[١٥] وليس هذا فقط في العهد الجديد بل في العهد القديم أيضاً. صُوَرٌ كثيرة يُقدمها العهد القديم عن التزام الرَبّ بشعبه. سوف أختار منها صورتين: الأولى نجدها في سفر حزقيال الأصحاح السادس عشر، والثانية في الأصحاح الحادي عشر من نبوة هوشع. سوف لن أفعل شيئاً إلا أن أكتبهما كما هما من الترجمة العربية المُبَسَّطة. في نبوة حزقيال يتكلم الرب إلى أورشليم كرمزٍ لشعبه قائلاً:

١٥ رسالة رومية ٨: ٣١- ٣٢

كُنتِ كطفلٍ تركته أمه حين وُلِدَ

حينَ وُلِدتِ لم يكن هُناك من يقطع حبلك السُرّي. لم يغسلك أحد للتطهير. لم تُدَلَّكي بالملح، ولم تُقَمَّطي.

لم يُبدِ أحد أيَّ لطفٍ نحوِك بعمل هذه الأمور لك

لم يكن هناك من يشفق عليك. وحين وُلِدتِ، ألقيتِ في الحقل مرفوضةً.

ثم مررتُ بك ورأيتُك مطروحةً تتمرغين بدمك. فقُلتُ لك: «عيشي بالرغم من دَمِك! عيشي بالرغم من دمك!»

فَنَمَوتِ كنبتةٍ في الحقل. نموتِ وكبرتِ، وصرتِ جميلةً جداً، فَنَمَا صدرُك ونَبَتَ شَعرُك. لَكِنَّكِ كُنتِ بلا ثياب

وبلا زينة.

تأملتُك فرأيتُك ناضجة للحُبّ، فتزوجتك وغطيت عُريك بثوبي. وَعَدتُ بالارتباط بك ودخلتُ معك في عهد،

فصرتِ لي. هذا ما يقوله الرب الإله.[١٦]

الصورة الثانية هي من نبوة هوشع:

كيف أتخلى عنك يا إفرايم؟

كيف يُمكِنُني أن أُسَلِّمَك إلى أعدائك يا إسرائيل؟

كيف أتخلى عنكِ كأدَمَة؟

كيف أجعلك كصبوييم؟[١٧]

اضطرب قلبي في داخلي،

---

١٦ حزقيال ١٦: ٤- ٨

١٧ مدينتان دمرهما الرب وقت تدمير سدوم وعمورة (تكوين ١٩ وتثنية ٢٩: ٢٢).

ومشاعر المحبة والحنان اشتعلت،
لن أُطلِق غضبي،
لن أخرِب أفرايم ثانيةً.
أنا الله ولستُ إنساناً
أنا القدوس الساكن في وسطِك
ولن أعود أغضب عليكِ.[١٨]

ثانياً: أنا *معك، قريب منك*. السماء (عالم الله) ليس مكاناً بعيداً نرجو أن نذهب إليه أو يأتي هو إلينا. السماء تتداخل وتتقاطع مع وجودنا الأرضي بشكل حميم جداً. ويكتب دالاس ويللارد في كتابه الكلاسيكي *الخطة (المؤامرة) الإلهية* عن اقتراب الله: لا شيء، لا إنسان ولا مؤسسة، ولا زمان، ولا مكان، ولا خليقة روحية، ولا حَدَث يستطيع أن يقف بين الله وبين هؤلاء الذين يثقون به. إن «السماء» هي هُنا معك مهما كان، وبحسب مفهوم الكتاب المقدس، الذي يستخدم تعبير «السموات» في صيغة الجمع ويقسم السماء إلى درجات ومستويات، «السماء الأولى» هي الهواء المُحيط بنا من كُل ناحية.[١٩] ويتفق معه ن. ت. رايت في كتابه *فاجئني الرجاء* في نفس المفهوم عن السماء:

> لغز الصعود يُعلن لنا أيضاً أن نطاق الله ونطاقنا ــ السماء والأرض ــ ليسا مختلفين ولا مبتعدين كثيراً. فهما بالرغم من اختلافاتهما النوعية، متقاطعين ومتشابكين بطرقٍ عديدة. وذات يوم سوف يرتبطان بصورةٍ أوثق وبشكلٍ جديد (مثل هذا الترابُط نستطيع أن نراه في جسد يسوع

---

١٨ هوشع ١١: ٨- ٩

19 Dallas Willard, *The Divine Conspiracy*, 67

القائم من الأموات، فهو يدخل ويخرج والأبواب المغلفة، وفي نفس الوقت أستطاع تلاميذه أن يلمسوه، واستطاع هو أيضاً أن يأكل معهم).[٢٠]

الرب قريب، لكننا كثيراً ما نفشل في رؤيته والإحساس به لأننا مُنشغلون بأنفسنا. يكتب ريتشارد فوستر عن قلب الله من نحو الإنسان: اليوم قلب الله هو جَرحُ محبةٍ مفتوح. إنه يتألم لبُعدنا وانشغالنا. إنه ينوح على نسياننا له وعدم رغبتنا الاقتراب منه. إنه يبكي على وَلَعنا بالمزيد من كل شيء. إنه يشتاق لحضورنا.[٢١] وإنشغالنا بأنفسنا لا يكون فقط بالأمور المادّية، بل كثيراً ما نكون مشغولين بحياتنا الروحية أكثر من الله. الحياة الروحية لا تنمو وتتقدم بالانشغال بها وإنما بالتسليم لله. إنها مثل العوم تماماً. لا يُمكن أَن يعوم مَن ينشغل بالطفو وعدم الغرق. في الواقع لا يعوم إلا من ينسى نفسه تماماً ويتوقف عن الانشغال بطفوه وغرقه ويثق بالبحر ويترك نفسه له. البحر معك وليس ضدك ، وهو قريب منك يحملك لأنه يريدك أن تعوم ولا تغرق. لن يعوم إذاً إلا من يتصالح مع البحر ويطمئن إليه. لا بأس إن ضعف إيمانك أحياناً ودخل الماء إلى أنفك وبَلَعتَ بعض الماء، هذا لا يغير من حقيقة أن البحر يحمل الإنسان. قد يَترُكك الله قليلاً وقد لا تشعر بقربه أحياناً[٢٢]،لكن في نهاية الأمر الله معك وليس عليك، وقريبٌ منك وليس بعيداً عنك.[٢٣]

20 N. T. Wright, *Surprised by Hope*, 115 (San Francisco: Harper, 1997).

21 Richard J. Foster, *Prayer, Finding the Heart's True Home* (San Francisco: Harper, 1992), 1.

٢٢ مزمور ١٠: ١ و إشعياء ٤٥: ١٥ و ٥٤: ٧-٨

٢٣ أعمال الرسل ١٧: ٢٧-٢٨

ثالثاً: أنا معك *بطريقتي وليس بطريقتك*. كثيراً ما ننسى ونتعامل مع الله وكأننا أندادٌ. بل أحياناً ما نتعامل معه وكأنه إنسانٌ مثلنا بل وأحياناً كأنه أقل منّا، مثل «خادِم المصباح» الذي ينبغي أن يُجيب كل طلباتنا. كثيراً ما نتعامل مع الصلاة وكأنها بمثابة حَكّ المصباح لكي يظهر الخادم ويصنع لنا كل ما نطلب منه. يقول الرب على لسان إشعياء: «لاَ تَخَفْ لأَنِّي مَعَكَ. لاَ تَتَلَفَّتْ لأَنِّي إِلهُكَ. قَدْ أَيَّدْتُكَ وَأَعَنْتُكَ وَعَضَدْتُكَ بِيَمِينِ بِرِّي.[٢٤] أنا مَعَك ولستُ ضدك، يقول الرب، وقريب منكَ لا بعيدٌ عنك، وأنا أيضاً إلهُك، وهذا يعني إنني معك بطريقتي وليس بطريقتك، لأن طريقتي أفضل لك. إن هدف الله ليس راحتنا ولذّتنا المُباشرة ولكن راحتنا على المدى الأبعد، وهذا معناه أن هدف الله هو نمؤنا. الله يفتح لنا في ملكوته هُنا على الأرض«صالة تدريب» وليس «مَطعَماً.» نحن نميل لأن نذهب للمطاعم أكثر بكثير مما نميل للذهاب لصالات التدريب، ونميل لارتياد مطاعم الوجبات الخفيفة السريعة أكثر من المطاعم التي تقدم وجبات تحتاج لوقت في إعدادها. إننا نريد إشباع جوعنا، هنا والآن. إن أهم ما يميز الواقفين يَمُدُّون أياديهم بالأوراق الصغيرة للعمال الذين يقومون بإعداد شطائر الفول والطعمية هو نفاذ الصَبر. الكُل يريد شطائره الآن. في واقع الأمر المطاعم التي تطالبنا بالمزيد من الانتظار، تقدم طعاماً أكثر صحة من مطاعم الوجبات السريعة، وصالات التدريب التي لا تطالبنا ليس فقط بالانتظار وإنما أيضاً ببذل المجهود، تقدم لنا خدمة أعظم من نحو صحّتنا وأجسادنا من كل المطاعم. لا مانع طبعاً أن تقدم صالات التدريب طعاماً لكنه بالتأكيد سوف يكونُ طعاماً صِحّياً.[٢٥]

---

٢٤ إشعياء ٤١: ١٠

٢٥ رسالة يوحنا الرسول الأولى ٥: ١٤

إننا كثيراً ما نقع في الله ونتذمر عليه وهذا نابعٌ في كثير من الأحيان من تصوراتنا غير السليمة عنه وتوقعاتنا غير الواقعية منه. إننا للأسف نعامله كما يعامل الزبائن نافذي الصبر عامل الشطائر السريعة، وكما يتعامل مشتري المُرطبات مع ماكينة الصَرف التي لا تستجيب بعد أن وضع فيها عملاته المعدنية. إن كثيراً من الذنب يقع أيضاً على الذين وعدونا وعَلَّمونا، دون أن يقصدوا، إن الله كذلك.

الفصل السادس

لأنَّكِ لا تَخْزِينْ

في نار المحبة يحترق الخزي

قد لا يستطيع من يشعرون بالخزي العميق أن يستقبلوا محبة الله، رُبما بسبب عدم استطاعتهم أن يصدقوا ، وربما بسبب غضبهم منه لأنه لم يحمهم مما حَدَثَ لهم.

الخزي هو الوجه القبيح للحياء والشعور بالذنب. من المفيد أن يكون لدى الإنسان شعور بالحياء يساعده على الحفاظ على حدوه النفسية والجسدية. الشعور بالذنب أيضاً مفيد لتنبيه الإنسان للخطأ الأخلاقي فيعتذر ويتوب. أما الخزي المَرضي السام فهو أمرٌ آخر. أن يشعر الإنسان بالذنب فهذا معناه أن يُدرِك أنه فعل أمراً خاطئاً، أما الخزي فهو أن يشعر الإنسان أنه هو نفسه خطأ ومعيوب بشكل أساسي ولا يُمكن أن يخرج منه شيء صالح.[1] بحسب نظرية إيريك إيريكسون للنمو النفسي، التوبيخ الشديد للطفل في مرحلة الفطيم (من سنة ونصف إلى ثلاث سنوات) يُعَرِّضُهُ للشعور بالخزي والشَكّ في نفسه. عندما يُعَنِّف الطِفل على أشياء طبيعية غير مقصودة (مثل تكسير شيء بسبب عدم قدرته على إدارة حركته بشكل سليم) أو على ميله للاستكشاف أو لممارسة الإرادة والإدارة الذاتية Autonomy فإنه يشعر أن يُوَبَّخ لكونه «هُو» أي لذاته وليس لشيء فعله. الطفل في هذه المرحلة لا يعرف الصواب

1 John Bradshaw, *Healing The Shame that Binds You* (Deerfield Beach, FL. : Health Communications, 2005) Location 488.

من الخطأ ولا يستطيع التفريق بين نفسه وما يفعله، لذلك فإن الإفراط في التوبيخ في هذه المرحلة يغرس بذور الخزي في شخصيته، وهي بذور رُبما تتسبب فيما بعد في الكثير من الأمراض والاضطرابات النفسية والسلوكية.[٢] يصف تشارلز وايتفيلد الأسرة المؤسسة على الخزي Shame Based Family بأنها الأسرة التي لم يتلق فيها الوالدان احتياجاتهما النفسية الأساسية في الطفولة، وبالتالي هي أسرة لا تعترف بالاحتياجات النفسية.[٣] وأيضاً لكون الأمَّهات في ثقافتنا الشرقية يَملنَ إلى السيطرة المُبالغ فيها على أطفالهن وعدم السماح لهم بممارسة الإدارة الذاتية بشكل كافٍ فإن ثقافتنا بشكل عام ثقافة يُطلق عليها ثقافة الخزي Shame Based Culture وهذا يُميِّز الثقافات القَبَلية القبل حداثية بشكلٍ عام. هذا الخزي يمنع الكثير من المبادرة والإقدام والإبداع وهذا يفسر ضعف الإبداع في ثقافتنا. وعندما تضاف الاعتداءات الجنسية في الطفولة، وهي أيضاً شائعة في ثقافتنا، فإن الخزي يصل إلى أبعاد رهيبة من كراهية النفس وكراهية الجسد، وأغلب الاضطرابات النفسية والسلوكية.

تشريح الخزي

الخزي هو نوع من الخوف مضافة إليه كراهية النفس. وهو مثل الخوف والقلق يدفع للخطايا كما رأينا في الفصل السابق، لكن نوع الخطايا هُنا مختلف. إذا كان القلق كثيراً ما يؤدي للكبرياء وتضخيم النفس وما يتبع ذلك من شهوة وقسوة وتبرير، فإن الخزي، وإن كان أحياناً ما يؤدي أيضاً للكبرياء والنرجسية كدفاع ضد الخزي، لكنه في أحيانٍ أخرى يؤدي إلى العكس، أي الميل للتحقير من النفس وكراهيتها.

---

٢ أوسم وصفي. *مهارات الحياة*. ص. ١٥٩- ١٦٠

٣ نفس المرجع السابق. ص. ١٦٢

وهذا أيضاً نوع من أنواع الانحصار المرير في النفس.

أقسى صور الخزي رأيتها فيمن تعرضن في طفولتهن للاعتداء الجنسي. هذا الاعتداء يفصل بين الإنسان ونفسه، وبين العقل والجسد، وبين الراشد والطفل في كيان الإنسان الواحد. هذا قد يصل بالإنسان إلى انشطار الشخصية إلى شخصيات متعددة،[4] قد تصل في بعض الحالات الشديدة إلى مئات الشخصيات. هذه الحالة من انقسام الإنسان على نفسه لا تُشفى إلا إذا وجد الإنسان حُبّاً والدياً شديداً يصالحه على نفسه. عندما يجد الإنسان من يُحب كل كياناته معاً، فإنه يبدأ في التصالح بين أجزاءه المتناثرة، بين ماضيه وحاضره، فكره ومشاعره، طفولته ورُشدُه، عقله وجسده، ويبدأ في الاكتمال. في كتاب *معرفة الله والنفس*،[5] قدمنا صُوَراً للقاء المسيح مع شخصيات عانت انقسامات حادّة مثل المرأة السامرية والشاب الغني وزكا والمرأة نازفة الدَم، إما بسبب حياة أخلاقية مُتَرَدّية أو نزاع في القلب بين محبة الله والمال، أو بسبب مرض مُزمن مرتبط بقدر كبير من الخزي الاجتماعي. وقد كان القبول غير المشروط الذي قدمه يسوع لمثل هؤلاء الناس كما هُم، عاملاً حاسماً في تصالحهم مع أنفسهم. تركت المرأة السامرية جَرّتها وركضت نحو القرية التي كانت تهرب من مواجهتها (بالاستقاء في الظهيرة)، وزكا وقف وسط الوليمة ليعترف بوشايته وفساده الماليّ، والمرأة نازفة الدم أعلنت عن نفسها أنها هي التي تقدمت ولمست ثوب يسوع وأفصحت عن مرضها النسائي الذي كان مصدراً للخزي الاجتماعي والعار الديني في ذات الوقت. أما الشاب الغني فلم يستطع الخروج خارج حُبّه للمال ليستقبل محبة المسيح المُغَيِّرة التي

4 Dissociative disorders and multiple personality disorder.

٥ أوسم وصفي، وماهر صموئيل. *معرفة الله والنفس* (عمان: أوفير، ٢٠١٣).

استقبلها الآخرون فشفتهم. في هذا الكتاب تَخَيَّلت حواراتٍ داخلية دارت بين الطفل الداخلي المجروح والراشد الذي قد تعلم طُرُقاً أغلبها غير صحيّ للتعايش مع هذا الشعور الدفين بالخزي، وهي حوارات لطالما استمعت إليها من عملائي وعميلاتي.

ها هو مُقتَطف من أحد هذه الحوارات الداخلية والذي كتبته عميلة لديّ تعرَّضت في طفولتها لسلسلة من الاعتداءات الجنسية من أقرب الناس إليها:

- الراشدة: هل تذكرين كيف كُنتِ؟ أم عليّ تذكيرك؟ هل تذكُرين ذلك الموقف؟
- *الطفلة: أرجوكِ تَوَقَّفي.*
- الراشدة: هذه هي أنتِ. هذه هي حقيقتك.
- *الطفلة: أنتِ قاسية مثلهم. حتى حين أريد البكاء تمنعيني.*
- الراشدة: لأنك تافهة لا يزال هذا يؤثر فيكِ. تعشقين النَوح، بالرغم من أن هذا الموقف قد مضى، وأنا من أنهيته.
- *الطفلة: لا. ليس حقيقياً. لم تفعلي هذا وحدك. لولا أنَّه كان هناك من ساعدني وابتلع ألمي وخوفي، لما استطعت التغيير. لقد كنتُ مريضة. كنت أتألم.*
- الراشدة: وأنا من خَلَّصتك وصَمَدتُ لأنهي هذا.
- *الطفلة: لا. من خلَّصني هم الأشخاص الذين وضعهم الله في طريقي. وتلك الصرخة التي رفعتها إلى أبي الذي في السماء حين اشتدَّ ألمي ولم أعد أحتمله. كنتِ حتى تمنعيني من البكاء عند الألم. كُنتِ تُخرسيني في*

كل مرة أردت التكلُّم فيها. عاملتني بقسوة كبيرة. منعتني حتى من طلب الشفاء.

- الراشدة: أنت دائماً حمل فوق ظهري، وأنا سئمت وتعبت منك. دائماً لديك ألم، دائماً تريدين النوح والبكاء، لا يُرضيك شيء، وهذا ما يجعلني أشعر بالجنون حقاً ويجعلني أرغب في قتلك وتعذيبك حين تشعرين باحتياجك.
- *الطفلة: قوَّتك الزائفة ليست كافية لمقاومة من حولك، لذا تستضعفيني أنا وتقوين عليّ.*
- الراشدة: لا أعلم كيف أجعلك تفهمين أن ليس من حقك شيئاً إلا الصمت؟ ألا تخجلين من نفسك؟ ألم تشعرين بالعار حين نظرتِ لصورتك؟ أنت أكبر غلطة في العالم.
- *الطفلة: تحاولين قتلي بالرغم من كونك تعلمين إني أنا سبب حياتك. لولا أنا لما كُنتِ أنتِ.*

هذا حوار بين الطفلة الداخلية، التي هي أقرب للذات الحقيقية المجروحة بسبب الإساءة وغياب الحُب، وبين الراشدة التي تَبَنَّت ذاتاً مُزيفةً تستخدم دفاعاتٍ عنيفة لتمنع الطفلة الداخلية من الإحساس والنوح وطلب المحبة من الله والآخرين. لا يحدث الشفاء إلا عندما تحدث المصالحة بينهما وتستجيب الراشدة لنواح الطفلة الداخلية وتسمح لها بالتعبير. عندما تتخلى الراشدة عن تلك الذات المزيفة وتستجيب إلى صراخ الطفلة الداخلية من ناحية، و تستجيب أيضاً لمحبة الله من ناحية أخرى، فيلتقي المسيح بالطفلة الداخلية ويقدم لها المحبة التي يعرف أنها

سوف تشفيها من ألمَها وخزيها. أتصور أن يسوع عندما قال: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ.»[٦] كان يقصد أيضاً أن يدع الإنسان طفله الداخلي (الذي يُمثل قلبه الحقيقي) أن يستجيب لمحبة الله.

يُسمّي برنان مانينج هذه الذات المُزيفة *المُدَّعي The Imposter*[٧] لأنها ليست ذواتنا الحقيقية وإنما مجموعة من الدفاعات تلبس أجسادنا وتتصرف كأنها نحن وتعمل لعكس مصالحنا تماماً. ويكتب عنها جيمس ماسترسن في كتابه *البحث عن الذات الحقيقية*[٨]:

> تلعب الذات المزيفة دورها المُخادِع، وكأنها تحمينا لكنها في محاولاتها أن تحمينا تجعلنا خائفينمن الناس متوقعين الهجر دائماً ومرتعبين من أن نكون بمفردنا.

وللتأكيد على كونها هذه الذات مزيفة وليست ذواتنا الحقيقية، يكتب يحيى الرخاوي في حوار بينهما، تقول فيها الطفلة الداخلية (الحقيقية) للذات المُزيفة:

> انتي تموتي تروحي في داهية أنا ما باموتشي
> أنا باستنّى اللحظة دَهِيَّة، علشان أطلع
> أنا جايباكي هنا برجليكي.. علشان أشبع... من وراء ضهرك.[٩]

---

٦ متى ١٨: ١٤

7 Brennan Manning, *Abba's Child*, 33.

8 James Masterson, *The Search of the Real Self* (New York: Free Press, 1988), 67.

٩ يحيى الرخاوي. *أغوار النفس. من واقع العلاج النفسي والحياة* (القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر، ١٩٨٧). ١٧١.

استقبال محبة الله

يبحث الله عن هذه الطفلة المجروحة الباكية ليشفيها بالحُب. لقد مَرَّ بها وقت أن كانت طفلة مطروحة على وجه الحقل بخوفها وخزيها،[١٠] وقال لها أن تعيش بدمها. لقد كانت مُعجزة أن تحيا بعد أن ألقى بها أهلُها ولم تشفق عليها عينٌ لكي تقدم لها الاحتياجات الجسدية الأساسية اللازمة لكي تبقى على قيد الحياة. قال لها أن تحيا بالرغم من كل هذا لكنه يعرف أنها تحيا حياةً أشبهُ بالموت، فهي لاتزال عريانة وعارية. تحيا بالخزي الذي يُشعرها بالعُري وإن كانت ترتدي أفخر الملابس. وبلا زينة وإن كانت ترتدي أغلى وأفخم الحُليّ. وبعد أن وصلت إلى سِنّ الرُشد الذي فيه تُصبح قادرة على القرار، يأتي إليها ويخاطب نفس الطفلة المجروحة بداخلها والتي لا يزال عليها دم ولادتها الذي تجمد وصار ذاتاً مزيفة داكنة كَسَت جلدها منذ الطفولة حتى ظَنَّت أن هذا اللون الداكن هو لون جلدها الطبيعي. جاء لكي يدخل معها في عهدٍ فتصيرَ له. عندئذ يستطيع أن يَغسلِها من دمائها القديمة ويُحررها من ذاتها المزيفة، ويشفي جراحها بالحُب، ويلبسها ثوب حرير مُطَرَّز ويعطيها مِنطَقة من كتان وينعلها بالتُخس (جلد الدلافين) ويقدم لها مجموعة مُبهرة من الجواهر. فقط عليها أن تُصَدِّق الحُب وتقبل القبول وتدخل في عهد المحبة الجديد.

في الأصحاح الرابع والخمسين[١١] من نبوة إشعياء يُقدّم الوحي صورةً مشابهة ولكن ليس لطفلة تشعر بالخزي بسبب الرفض والإساءة ولكنها صورة لامرأة تشعر بالخزي بسبب ترك زوجها لها. الطفلة التي تحتاج للأب، يكون الربُ لها

١٠ حزقيال ١٦

١١ إشعياء ٥٤: ٤-١٠

الأب الغائب، والزوجة المرفوضة والمرذولة يصير الرب زوجها ورفيق عُمرها:

لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزَيْنَ، وَلاَ تَخْجَلِي لأَنَّكِ لاَ تَسْتَحِينَ. فَإِنَّكِ تَنْسَيْنَ خِزْيَ صَبَاكِ، وَعَارُ تَرَمُّلِكِ لاَ تَذْكُرِينَهُ بَعْدُ. لأَنَّ بَعْلَكِ هُوَ صَانِعُكِ، رَبُّ الْجُنُودِ اسْمُهُ، وَوَلِيُّكِ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ، إِلهَ كُلِّ الأَرْضِ يُدْعَى. أَنَّهُ كَامْرَأَةٍ مَهْجُورَةٍ وَمَحْزُونَةِ الرُّوحِ دَعَاكِ الرَّبُّ، وَكَزَوْجَةِ الصِّبَا إِذَا رُذِلَتْ، قَالَ إِلهُكِ. لُحَيْظَةً تَرَكْتُكِ، وَبِمَرَاحِمَ عَظِيمَةٍ سَأَجْمَعُكِ. بِفَيَضَانِ الْغَضَبِ حَجَبْتُ وَجْهِي عَنْكِ لَحْظَةً، وَبِإِحْسَانٍ أَبَدِيٍّ أَرْحَمُكِ، قَالَ وَلِيُّكِ الرَّبُّ. لأَنَّهُ كَمِيَاهِ نُوحٍ هذه لِي. كَمَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ تَعْبُرَ بَعْدُ مِيَاهُ نُوحٍ عَلَى الأَرْضِ، هكَذَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ أَغْضَبَ عَلَيْكِ وَلاَ أَزْجُرَكِ. فَإِنَّ الْجِبَالَ تَزُولُ، وَالآكَامَ تَتَزَعْزَعُ، أَمَّا إِحْسَانِي فَلاَ يَزُولُ عَنْكِ، وَعَهْدُ سَلاَمِي لاَ يَتَزَعْزَعُ، قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ.

مجتمع المحبة

في كثير من الأحيان لا يستطيع من يشعرون بالخزي العميق أن يستقبلوا محبة الله، رُبما بسبب عدم استطاعتهم أن يصدقوا أنهم لا يزالوا محبوبين منه، وربما بسبب غضبهم منه لأنه لم يحمهم عندما حدث لهم ما قد حدث. لمثل هؤلاء ينبغي أن تتجسد محبة الله في بشر يُقدمون الحُب المثابر والصبر الحكيم والاهتمام الصِحّي. يكتب الرسول يوحنا أن من يقول أنه يُحب الله ويبغض أخاه كاذب لأن من الصعوبة أن تُحب الله الذي لا تراه وأنت تبغض أخاك الذي تراه. هذا يعني أن رؤية الحُب الإلهي متجسداً في اللحم والدم يُسهِّل لنا الإيمان به. نحن بشر نعيش في الجسد، لذلك يصعب علينا تصديق محبة الله عندما لا نراها متجسدة في رجال

ونساء الله. عندما كتَب فيليب يانسي كتابه *أين الله عندما نتألم*، اختتمه بتغييرٍ في السؤال لكي يُصبِح: *أين الكنيسة عندما نتألم؟* مُشيراً إلى أن الله قد أوكل حضوره في العالم إلى الكنيسة.[١٢] وهذا بالطبع لا يعني المؤسسة الكَنَسية، وإنما مجتمع المؤمنين به الذين ينبغي أن يتميز أوَّل ما يَتَمَيَّز، بالمحبة. ولكي نستقبل المحبة غير المشروطة الموجودة عند الآخرين ينبغي أن ننفتح عليهم. إن كُنا نريد أن تختبر المحبة «كما نحن» ينبغي أن نظهر «كما نحن.» الاعتراف والمشاركة والشفافية يتيح للطفلة الداخلية الخروج ويُخَرِّب برامج الكبرياء والإدعاء والسيطرة التي تمارسها الذات المزيفة والتي تقف حاجزاً بيننا وبين المحبة. المرأة السامرية اعترفت قائلة: «يا سيد أرى أنك نبيّ» وهذا اعتراف ضمني بأن ما قاله المسيح عن ماضيها حقيقي. وزكا وقف وسط الجماعة واعترف بوشايته ببني جنسه للرومان، أما الشاب الغني فلم يعترف أنه يحب المال أكثر من الله، فحَرَم نفسه من دخول مياه المحبة والقبول إلى جنين بذرة قلبه المتعطشة للحياة، وإنما انتصرت تلك الذات المزيفة التي تمثل قشرةً جافةً ظَنَّ أنها تحميه وهي في الواقع تمنعه من الحياة.

في كتابه العميق *من الخزي للسلام*، يكتب تيو فان دير فيله عن دور الكنيسة في شفاء أعضاءها من الخزي: «إن الكنيسة هي جزء من خطة الله لياتي بالخلاص للإنسان، فهو قد قرر أن يستخدم البشر لتحقيق هذه الخطة. وبالرغم من أنهم مكسورون ومتألمون، لايزال الله يستطيع أن يستخدمهم لمساعدة الآخرين. لقد قرر الله أن يستخدم الكنيسة منبراً لنعمته.»[١٣]

12 Philip Yancey, *The Question That Never Goes Away*, 149.

١٣ تيو فان دير فيله، *من الخزي للسلام* (القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، ٢٠٠٩) ص ٢٣١.

فالرب قد أوصانا وقال:

«مَن يُحِب الله، عليه أن يُحِبّ أخاه أيضاً»

(رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٢١)

الترجمة العربية المُبَسَّطة

ختام

أنت تعرف

أنت تعرفُ الحبوَ في التراب

وجروح الرُكَب

وجروح القلوب

وصحوة العقل في جسد هزيل

والبكاء في منتصف الليل

وجمهرة الأحزان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

أنت تعرف أن ترى الرجاءَ

في حبات الدموع

وقرصة الجوع

وطعم حبات المطر

ومصاهرة الحرمان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

أنت تعرف الأقدام الباردة في الشتاء

والزكامَ ... والقلق

أنت تعرف كيف تبهت الألوان فجأة

ويصبح الموت بهجة

وكيف نستعطف النسيان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

أنت تعرف رائحة الحنان

في بخار طبيخ ساخن

وما يفعله في القلب

ابتسامُ الرضيع

وخطواته الأولى...فوق القمر

وانتهاء العمر

وجفاف ينابيع الحنان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

أنت تعرف انفجار الغضب

ومذاق الظلم

وحرقة الفراق وحيرة الضعف

وشهوة القوة وصعقة الخيانة

ومؤامرة الكبرياء...وكيف يسري في الجسد الإيمان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

أنت تعرف دبيب الخوف في الأوصال

وانصراف المتفرجين وفرار الرفاق

والوحدة

والخفافيش

وقسوة القرار دونما إنسان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

أنت تعرف الاقتياد في منتصف الليل

للغرف الباردة

والانتهاك

والارتباك

ودموع الحجر

ومضاجعة الحقيقة على مرأى العيان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

أنت تعرف الواحد من بين الجموع

أنت تسمع أنين المدن

وتبكي ثكل النجوع

وعورة القتيل تحت الجرائد

وحداد المكان

أنت تعرف ماذا يعني أن تكون إنسان

طوبى لكل من ولد من رحم

طوبى لكل من نزف دم

طوبى لكل من ذرف ماء قلب

و أحب

طوبى لمن عرف الألم

وحلم.....

طوبى لكل إنسان.[1]

١ أوسم وصفي. ١٩٩٧

من منشورات تويتر

- الإيمان بلا #محبة (أي الدين) ليس حلا للخطية لأنه لا يحل مُعضِلةَ القلق. والذنوب هي محاولات للتعامل مع القلق. هذا يفسر وجود الدين وغياب الأخلاق.

- مهما كانت الألفاظ: دين وتدين (الدينونة) أو تقوى (إتقاء"شر"أو "مكر" الله) القضية هذا أن الخوف من الله لا يصنع أخلاقًا لأن الخطية تنبع من القلق.

هادي نبيل: أم ينبع القلق من الخطية. «سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عُريان فاختبئت»؟

أوسم وصفي: دائرة مفرغة.

أوسم وصفي: الصغير المخلوق قَلِق بسبب الصِغَر والمحدودية. هذه ليست خطية. الخطية هي عندما نتعامل مع القلق بمحاولة تخدير أنفسنا أو تكبيرها. ولأننا نفشل فهذا يزيد من القلق وهكذا.